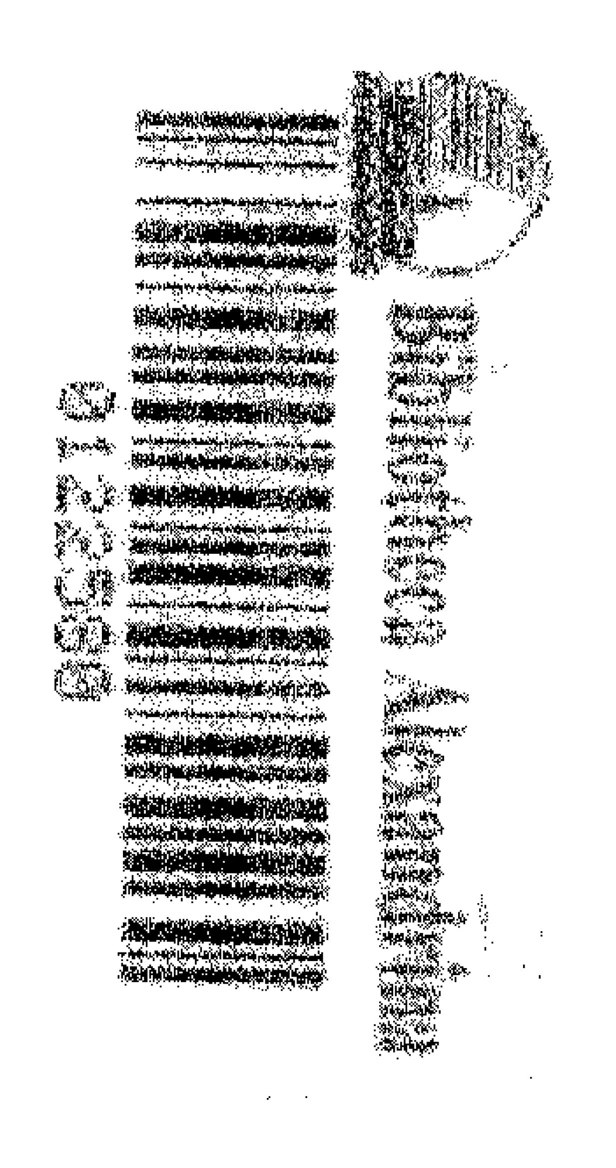
دكتور
أبو الوفا الغنيمي التفتازاني
أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الإنسان والكون في الإسلام

١٩٩٥

توزيع
دار الثقافة للنشر والتوزيع
٢ ش سيف الدين المهراني - الفجالة
ت : ٩٠٤٦٩٦



الإنسان والكون

دكتور
أبو الوفا الغنيمي التفتازاني
أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الإنسان والكون في الإسلام

١٩٨٥

دار الثقافة للنشر والتوزيع
٢ ش سيف الدين المهراني - الفجالة
ت : ٩٠٤٦٩٦

الإهـــــــداء

الى

ابنائى من شباب الجامعـــات

فهرس

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

مقـــــــدمة

يشكو كثير من الناس من أن القيم السائدة فى مجتمعاتنا المعاصرة أخذت تهتز بشدة ، وهــذا راجع فى الحقيقة الى طبيعـــة العصر ، فانه يتميز بأنه عصر صراع فكرى وعقائدى حاد ، خصوصا حول قضايا المجتمع الاقتصادية والسياسية والثقافية .

وفى مثل هذا الجو من الصراع الفكرى يشعر المواطن فى العـــالم العربى والاســـلامى بحاجة ملحة الى فهم ثقـــافات عصره على اختلافها ، والملاءمة بينها وبين تراثه الدينى والحضـــارى الذى نشـــأ فى جوه حتى لا يفقد ذاتيته ، خصوصا وانه يحس من أعماق نفسه انه ينتمى الى تراث حضـــارى أصـــيل كان له اكبر الاثر فى تقـــدم البشرية ، وانه اذا كان قد تخلف عن الركب بعض الوقت ، فانه قادر على المضى قـــدما الى الامام ليلحق بمن سبقوه على الطريق ..

على أنه فى هذا اللحاق لا يريد أن يقلد تقليدا اعمى ، وانما يريد أن يحافظ على استقلاليته الفكرية ، ولا مانع لديه من أن ينفتح على كل الآراء والمذاهب المعاصرة ، ولكن مع ضرورة التمييز بين النافع منها والضـــار ، ومع تنمية قدرته دائما على الابتـــكار ، فليس كل ما تنتجه المجتمعـــات فى الشرق أو الغرب من افكار صالحا بالضرورة لمجتمعه ، وملبيا احتيـــاجاته الفكرية والروحية ، ومحققا تقدمه الحقيقى لا الوهمى .

وقد ادت سهولة الاتصال بين شعوب العـالم فى عصرنا الى غزو فكرى لمجتمعاتنا ، فوفدت اليها فلسفات شتى ، منهـا ما يؤمن بالتفسير المـادى للوجـود ، فليس ثمة الا المـادة وقوانين تطورها ، وما العقل الانسانى لا أسمى نتاج للمادة ، والعالم لم يوجد الا اتفاقا أو مصـادفة ، فلا خلق ولا خالق . ومنها ما يبدأ سيره من ايمـان لا حد له بمنهج العلم التجريبى بحيث يجعل معيار الحقيقة التجربة الحسية وحـدها ، ومن ثم لا مجال للتفلسف الذى يحاول تجاوز عالم الحس الى ما وراءه ، فقضـايا الفلسفة التى تتحـدث عما وراء الطبيعة لا معنى لها ، اذ لا يمكن التحقق من صدقها أو كذبها . وأصحاب هذه الفلسفة يعنون عادة بالتحليل المنطقى للعبارات والالفاظ على أساس ان كل لفظ ليس له ما يشير اليـه فى عالم الحس زائف ، وبالتـالى فان القضية التى يستخدم فيها مثل هـذا اللفظ فارغة المعنى . ولو امتد منهج هـذه الفلسفة الى نطـاق الدين لاصبحت بعض قضايا الدين التى تتحدث عن غيبيات لا معنى لها ، ومن هنـا تعتبر هذه الفلسفة منتهية بطبيعة منهجها الى تقويض أركان العقيـدة الدينية ، حتى وان لم يعن أصحابها بتحديد موقفهم من الاديان . وثمة فلسفات أخرى من فلسفات العصر تنطلق من القول بأن حياة الانسان لا معنى لها ولا هدف منها الى الالحاد . ويرى بعض أصحابها وجود الانسان مجرد مأسـاة ، وامرا غير مفهوم أو لامعقول . ويرى بعضهم الآخر حرية الانسان باطلاق فى تحقيق ماهيته ، اذ لا اله يخلق وفق ماهية سابقة ، ولذلك يكون الوجود سابقا على الماهية ، ومآل الانسان الى العـدم ، فلا بعث ولا ثواب ولا عقاب . منهم أيضا من يؤكد على عدم الايمان بأى قيمة اخلاقيـة أو حقيقة مؤكدة ، ويتجهون بعنف الى الهدم ، فتوصف فلسفاتهم بوصف العدمية . وجميع هذه الفلسفات الأخيرة فى رأينا عبثية ، من حيث أنها ترى الوجود الانسانى مجرد عبث ، وتشاؤمية الطابع . ومن أسف أنها شاعت شيوعا غير عادى عن طريق الكتابات الادبية والمسرحية المعـاصرة فى أوروبا ، وهى كفيلة بالقضاء على اعظم ما انتجته البشرية من حضارة ، لأنها تقتل فى الانسان طموحه ، ولا تجعل له هدفا يسعى اليه .

والناس فى مجتمعاتنا بازاء هذا الغزو الفكرى ينقسمون الى ثلاثة اقسام ، فمنهم من يركن الى الاتباع والتقليد لكل ما هو وافد جـديد دون

وعى أو تفكير حر ، ومنهم من لا يهتم بالموازنة بين ما يفد اليــه وما نشــأ عليه ، ويقولون : لا وقت لدينا للعنــاية بمثل هــذه الامور ، ويمضون فى سبيلهم غير مكترثين ، ومنهم من يحيون مشكلة الغزو الفكرى ويعــانونها معاناة حقيقية ، ويريدون ايجاد حل لها ، يكفل عدم ذوبانهم فى فكر الغير ، وضياع شخصيتهم المتميزة .

وفى تصورنا أن الاحتــكاك المستمر بين الاســلام وفلسفات العصر كالتطورية والماركسية والوضعية والوجودية وغيرها ، سيعمل مع الوقت على ابراز فلسفة للاسلام جديدة ، تنفتح على كل الآراء ، ولكنهــا لا تفقد اصالتها وارتباطها بتراث أصحابها العميق الجذور فى الماضى . ونتيجــة للتقدم العلمى المستمر سيصبح من وظائف هذه الفلسفة الملاءمة بين العلم والايمان على أساس أن العلم لا يتعارض مع الايمان ، والاســلام نفسه يعين على هذه الملاءمة لانه دين العقل ، ولانه يدعو الى البحث الكونى ، وتسخير خيرات هذا الكون للانسان ، وأن العلم الذى يقودنا الى معرفة الكون يقودنا فى نفس الوقت الى العلم بالله ، ولا تعارض بين العلمين .

وهذا البحث الذى نقدمه للقارىء يسير فى ذلك الاتجاه الذى يجمع بين العلم والايمــان ، وقد سبق نشره فى مجلة «عالم الفكر» الــكويتية «المجلد الاول ـــ العدد الثالث ـــ أكتوبر ـــ ديسمبر ١٩٧٠ م» . وقد رأينا ان نقدمه للقارىء مرة أخرى فى هذه الطبعة ، ونرجو أن يجد فيه ما يشبع حاجته العقلية والروحية .

والله ولى التوفيق .

أول مارس ١٩٧٥ م .

ابو الوفا الغنيمى التفتازانى

تمهید

الانسان بطبيعته كائن مفكر ، منذ وجد على الارض وهو دائم التفكير فيما حوله ، وسيظل كذلك طالما هو موجود عليها ، فالفكر الانسانى لم يتوقف — ولن يتوقف أبدا — فى كل المجالات التى يمكن أن يتناولها بالبحث والدراسة ، وليس من المتصور مستقبلا ، مهما تقدم العلم ، أن يزعم الانسان أنه أحاط بكل شىء علما ، لان الكون أوسع من أن يحيط به عقله ، وهذه الحقيقة نفسها هى وراء تقدم العلم ، فلو كانت الحقائق العلمية ثابتة ومتناهية لوقف التقدم العلمى عند عصر معين أو نظريات معينة .

ونحن لا نقول مع سارتر : «أن الانسان محكوم عليه بأن يكون حرا» (١) ، وانما نقول ان ما هو أكثر حقيقة «أن الانسان محكوم عليه بأن يكون مفكرا» ، وما دام الانسان قد حكم عليه بأن يكون مفكرا ، فسيظل يتساءل بين الحين والحين عن علاقته بهذا الكون ومصيره .

والانسان هو هو لم يتغير ، كل ما فى الامر أنه كان قديما ينزع الى التفسيرات الميثولوجية للظواهر الكونية عن طريق الربط بين هذه الظواهر وبين علل خفية أو أرواح خيرة أو شريرة ، يتخيلها دون أن يكون لوجودها حقيقة ، وهو الآن يستعين بنظريات العلم فى تفسير هذه الظواهر نفسها تفسيرا واقعيا ، ولكنه يحس من ناحية أخرى أن العلم لا يفسر له كل شىء ، وأن ما يعرفه عن الكون لا يزال أدنى بكثير مما لم يعرف ، فانسان العصر فى الحقيقة ليس أقل من الانسان القديم اطلاقا لعنان خياله ، ولكن خياله

(1) Sartre (J.—P.) : L'être et le néant, P. 638.

فى هذه المرة ــ اذا صح التعبير ــ خيال علمى ينطلق من حقائق العلم الى آفاق المجهول الواسعة .

وهنا قد يتســـاءل البعض : هل ستستطيع النظرة الفلسفية الكلية الشاملة للوجود أن تصمد فى هذا العصر امام الزحف العلمى بعد أن وطــأ الانسان بقدميه سطح القمر؟

واجابتنا على ذلك هى اننا نتوقع أن تقوى هذه النظرة الفلسفية عما كانت عليه من قبل . ذلك ان البشرية قد دخلت عصرا جديدا ابرز ما يميزه ايمان لا حد له بالعلم والتكنولوجيا ، وازدياد فى ثقة الإنســـان بنفسه فى مواجهة الطبيعة ، واعتــداد بعلمية التفكير فى شتى نواحى الحيـــــاة الانسانية ، ومن هذا المنطلق ستنشأ فلسفات جديدة ، ولكنها ستحتاج الى مجهودات غير عادية تبذل لتنوع العلوم وازدياد الوقائع العلمية بشــكل يفوق تصور العقل ، فهذه الوقائع تتضاعف يوما بعد يوم بحيث يصعب على اى مفكر ان يلاحقها ، واى فلسفة نظرية مستقبلة لا تستند الى وقائع العلم منظورا اليها نظرة كلية شاملة لن تجد قبولا .

ومن المتوقع أن يتناول المفكرون مستقبلا قضايا لم يكن يهتم الناس بها كثيرا من قبل ، فبعد ان كان الناس فى القرن المــاضى واوائل هــذا القرن يوجهون اهتمامهم الاساسى الى الواقع المادى المشاهد ، وتطور الكائنات الحية على هذه الارض ، خصوصا بعد اعلان داروين نظريته فى التطور ، فان الجيل المعــاصر والاجيـــال التى ستليه ستوجه اهتمامهـــا الى الكون الخارجى ، وستتساءل عن حدوده وابعاده ، وامكان وجود كائنات اخرى فيه ، وما هو نوع حياتها ، وهل الفضاء الخارجى يتناهى او لا يتنـــاهى ، وهل هناك امكانية لحياة البشر على سطح بعض الكواكب الاخرى ، وهل لا يوجد فى هذا الكون الا الانسان فقط؟ كل هذه تســـاؤلات اصبحت تلح على الانسان المعاصر بعد ان نجح فى الوصول الى القمر .

وصحيح أن مثل هذه التساؤلات لن يجيب عليها بشكل محدد الا العلم ولكن الانسان لن ينتظر حتى يجيب العلم عن كل تساؤلاته ، وعندئذ سيلجأ اما الى الاستدلال العقلى ، فيضع أمامه نتائج العلم ليستنبط منهـــا بنظرة

كلية شاملة اجابات على تساؤلاته تلك قد تصبح بعد حين بمثابة فروض جديدة يبدأ العلم منها سيره الى اكتشاف آفاق اخرى مجهولة ، أو سيلجأ الى الخيال لفترة طويلة مقبلة ، وسنجد كتابا ومفكرين يطلقون العنان لخيالهم فى شأن الكون ، بل أن بعض العلماء سيكثرون من الفروض العلمية ولكن آراء أولئك وهؤلاء ستكون ادخل فى باب الفن والادب منها فى باب العلم .

مهما يكن من شيء ، فان الفلسفة بنظرتها الكلية الشاملة ، والادب والفن بما يوحيان به من المعانى والافكار ، لن تفقد جميعا اهميتها فى عصر العلم ، بل قد تعين العلم ذاته على مواصلة السير فى طريق التقدم .

ولعله من الملاحظ انه مع تقدم سير العلوم الكونية نحو اكتشاف آفاق جديدة مجهولة ينشط دعاة المادية مؤكدين للناس وجوب النظرة الى كل تراث دينى على انه لا مكان له فى هذا العصر . وقد ادى ذلك فى مجتمعاتنا العربية والاسلامية الى نوع من الصراع — الذى لا مبرر له — بين قيم تراثنا الدينى والحضارى والقيم الجديدة الوافدة التى يؤكد عليها أولئك الدعاة . ومثل هذا الصراع ينشأ فى رأينا من عدم التعمق فى فهم طبيعة الاسلام ، والانسياق بدون وعى وراء فلسفات العصر المادية ، وليس من شروط التقدم العلمى أن يقترن بالالحاد ، كما ان الالحاد فى ذاته ليس دليلا على علمية النظرة .

ولعل من أبرز الاسئلة التى يثيرها عقل الانسان الآن فى مجتمعاتنا ، حين يحاول التوفيق بين الاسلام وروح العصر الذى يعيش فيه ، هذه الاسئلة الثلاثة :

(أ) العلم كما نرى الآن يكشف من أسرار الكون ما لم يكن يخطر على بال أحد من السابقين ، والفضل فى ذلك يرجع الى منهجه الذى التزم به ، فهل الاسلام متفق مع العلم روحا ومنهجا ، وما هى مظاهر هذا الاتفاق؟

(ب) اذا كان العلم الحديث قد ساعد ، بما وصل اليه من نتائج فى مجالات شتى ، على تكوين صورة معينة عن هذا الكون ، كما اثبت قدرة

الانســـان على تسخير ما فيه من قوى طبيعيـــة وخيرات مادية لمنفعتـــه الخاصـــة ، فالى اى حـد تتوافق هـــذه الصـــورة مع تلك التى يمكن أن نستخلصها من المصـدر الاول للاســلام ، وهو القرآن الكريم ، عن الكون والانســـــان؟

(جـ) اذا كان العلم يصاحبه الآن كما نرى ايمان شديد بالمادة وغرور جامح بامكانيات الانسان ، فما هى قيم الاســـلام الروحية التى تحـد من اخطار ذلك؟

لقد أردنا لبحثنا هذا ان يكون محاولة للاجابة عن هـــذه الاسئلة ■ وفيما يلى بيان ذلك ■

الإسلام والعلم

لو انك نظرت الى العلم نظرة فاحصة لوجدت أنه فى أساسه خلق ، فالعالم يكتسب معلوماته وفق آداب معينة ، وهى ما يعرف بقواعد المنهج العلمى ، فالعلم ليس معلومات بقدر ما هو طريقة أو منهج لتحصيل هذه المعلومات ، وهو بهـذا الاعتبار «قيمة» من القيم ، اذا آمن بهـا المجتمع كاسلوب فى الحياة ، فان هذا المجتمع يحقق تقدمه الحضارى المنشود ، واذا لم يؤمن بها اصبح افراده فريسة للاوهـام والخرافات ، ولم يحققوا لمجتمعهم أى تقدم مادى أو روحى .

وقيمة العلم بهـذا المعنى قيمة اسـاسية فى الاسلام ، فهو يجعل التفاضل بين الناس فى المجتمع على اسـاس منه ، لانه اساس كل عمل ناجح أو سلوك فاضل . والتقوى ــ التى هى ايضا من أسس التفاضل بين الناس فى المجتمع ــ هى نفسها مردودة الى العلم باحـكام الدين ، فرجع التفاضل بين الناس مطلقا الى العلم .

يقول تعـالى : «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» (سورة الزمر آية ٩) . ويقول تعالى : «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» (سورة المجادلة آية ١١) .

وقد نبه الاسلام الناس الى أن العلم لا يقف عند حد معين ، وقد كان الناس قديما يعتقدون أن حقائق العلم ثابتة حتى اثبت علماء مناهج البحث فى العصور الحديثة أن نتائج العلوم احتمالية ، أى أن الصدق فيها احتمالى قابل للتغيير ، وهذا يفسر لنا التقدم العلمى المستمر ، وهـذه المعانى كلها متضمنة فى قوله تعالى : «وقل رب زدنى علما» (سـورة طه آية ١١٤) ، ومن ثم اصبح واجبـا على المسلم أن يستزيد من العلم يوما بعـد يوم ، فمسيرة العلم لا تتوقف أبداً .

ومما له دلالة عميقة على ان العلم فى الإسلام على درجة قصوى من الاهمية أن أول ما نزل من القرآن على الرسول (ص) هو قول الله تعالى : «اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم» . (سورة العلق ، آية ١ — ٥) ولهذا نجد الرسول (ص) يجعل فداء من يقرأون ويكتبون من أسرى بدر أن يعلم كل واحد منهم عشرة من أبناء المسلمين فى المدينة القراءة والكتابة .

وشرط العلم فى الاسلام ان يكون نافعا ، فقد كان الرسول (ص) يستعيذ من شر ما لا ينفع من العلم ، كما يستفاد ذلك من دعاء مأثور عنه يقول فيه : «اللهم انى اعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن نفس لاتشبع ، ومن علم لا ينفع» .

والمقصود بكون العلم نافعا فى الاسلام أن ينتفع به الفرد والمجتمع ، وقد روى عن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنه كتب الى أبى بكر بن حزم يقول : «انظر ما كان من حديث رسول الله (ص) فاكتبة فانى خفت دروس العلم (أى ذهاب أثره) وذهاب العلماء ، وليفشوا (أى العلماء) العلم ، وليجلسوا له حتى يعلم من لا يعلم ، فان العلم لا يهلك حتى يكون سرا (١)» .

من هذا كله تتبين لك مكانة العلم فى الاسلام ، فهو قيمة اساسية من قيمه ، من شأنها كشف مجهول أو أستكناه معقول من أجل خير الفرد والمجتمع ، واذا كان الامر كذلك ، فالاتفاق بين العلم والاسلام ظاهر ، ولا مجال للقول بالتعارض بينهما .

---

(١) الشيبانى : تيسير الوصول ، القاهرة ١٣٤٦ هـ ، ج ٣ ، ص ١٧٨ .

منهج البحث الكوني

ونحن لو نظرنا الى القرآن الكريم نظرة فاحصـــة متانية لوجدنا أنه يوجه العقل البشرى الى استخدام منهج متكامل فى البحث فى الكون (٢) .

(٢) لعله من المفيد فى بداية بحثنا ان نحدد مصدر اصطلاح «الكون» من القرآن الكريم ومعانية عند مفكرى الاسلام :

واول ما نلاحظه ان القرآن الكريم يشير الى ان التكوين ــ وهو اخراج المعدوم من العدم الى الوجود ــ صفة الله تعالى ، وهو تكوينه للعالم ، ولكل جزء من اجزائه لوقت وجوده على حسب علمه وارادته (التهـانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ، مادة : «التكوين») . والتكوين مشار اليه فى قول الله تعالى : «اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون» (ســورة مريم ، آية ٣٥) . ومعنى ذلك ان إلله يحكم بكون هـــذا الامر فيكونه (ابن حزم ، الفصل ، بهامش الملل والنحل للشهرستانى ، القاهرة ، جـ ٣ ، ص ٥٢) .

ويرى المتكلمون أن الكون مرادف للوجود (التهـانوى : كشـــاف اصطلاحات الفنون ، مادة : «الكون») ، وقد يستخدم اصطلاح «العالم» أيضـا ويشـــار به إلى مجموع اجزاء الكون ، اى الى مجموع المخلوقات

ويرى أهل التحقيق ، كما يقول الجرجـانى ــ ولعله يقصـــد بهم الصوفية من اصحاب وحدة الوجود ــ أن الكون عبارة عن وجود العالم كله من حيث هو عالم لا من حيث أنه حق . أما أهل النظر فى الفلاسفة فيرادف الكون عندهم الوجود المطلق العام ، وهو بمعنى المكون عندهم . (التعريفات مادة : «الكون»)فالكون بالمعنى الذى يمكن ان يستخلص من التعريفـات الســابقة هو مجموع ما تكون بالارادة الالهيــة فى الزمـان والمكان من الموجودات على اختلافها بعد أن لم تكن موجودة . ولهذا المعنى ما يماثله فى التراث الفلسـفى الاوروبى ، فان لفظ «كون» « Universum » يشير الى ممجوع الاشياء (Summa rerum) ، أو مجموع ما يوجـد فى الزمان والمكان . وعند الفيلسوف ليبنتز ايضا هو جملة الاشياء الموجودة ، واذا كان ثمة عوالم يمكن أن توجد فى ازمنة مختلفة وامكنة مختلفة ، فانه يمكن اعتبارها جميعا عالما واحدا ، أو أن شئت كونا (Theodicée, 1.8) وقـد يطلق الكون مجـازا على العـالم المرئى (Le monde visible) (أو عالم الشهادة كما يطلق عليه الاســلاميون) . وقـد يعتبر الـكون (Univers) مطلقا على حين يعتبر العالم Monde نسبيا :

Comte (A) ; polit. positive, 1,348

أما بالنسبة لنظرية النسـبية عنـد أينشتين فان الكون هو مجموع الاحداث المتميزة بارتباطها الزمكانى (نسبة الى زمان ــ مكان) ، انظر فى هذه المعانى وغيرها :

Lalande ; Vocabulaire technique et Critique de la Philosophie, Art ; « Univers »

ولهذا المنهج خطوتان : احداهما يطرح فيها الانســـــان جانبا آراءه السابقة عن الكون ، او ان شئت قلت : يطرح فيها التقليد ليتحرر فكره من قيوده ، ويكون اكثر استعدادا للبحث الموضوعي ، والثانية يكون بها صورة عن الكون ، وعن علاقته به ودوره فيه .

فلنشرع في بيان الخطوة الاولى :

يدعو القرآن الكريم الانسان باديء ذي بدء الى طرح التقليد ، وتحرير الفكر من الآراء والمذاهب الســـابقة الموروثة ، وفي ذلك يقول تعـــالى : «واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون» (سورة البقرة آية ١٧٠) .

وينعى القرآن على أولئك الذين الغوا اشخاصهم وعقولهم فعبـــدوا الاحبار والرهبان بمثل قوله تعالى : «اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله» (سورة التوبة — آية ٣١) .

ويعير القـــرآن اولئك الذين عطلوا حواسهم وعقولهم وركنوا الى التقليد الاعمى بأنهم كالانعـــام ، بل هم أضل ســـبيلا ، فيقول تعالى : «لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون» (سورة الاعراف — آية ١٧٩)

ويقول تعـــالى : «ان شر الدواب عنــــد الله الصم البـــكم الذين لا يعقلون» (سورة الانفال آية ٢٢) .

وجعل القـــرآن العلم وحـــــده — لا التقليد — السبيل الموصل الى ما يعتقده الانســـان ويسلك وفقه ، كما يشير اليه قوله تعالى : «ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنـــه مسئولا» (سورة الاسراء آية ٣٦) .

وكثيرا ما تحـــدى أولئك المقلدين للعقائد البـــاطلة الموروثة بمثل قوله تعالى : «قل هاتوا برهانكم ان كنتم صـــادقين» (سورة البقرة آية ١١١) . وقوله تعالى : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » (سورة الانعام آية ١٤٨) .

وكان من بين التصورات الكونية والعقائد المنحرفة عنـد العرب في الجاهلية تألية الكواكب ، وعبادة الاصنام ، وتعديد الالهة ، والايمان بالدهر ، وانكار الروح والبعث ، وما الى ذلك . فقد كان العرب — خصوصـا في جوف الجـزيرة العربية — يعبدون الاصـنام ويقدسـونها ويقدمون اليها القرابين ، وهذا هو ما يعرف بالوثنية . وكانت في الكعبة اصـنام لجميع القبائل ، وكبير الاصنام فيها الصنم المعروف بـ «هبل» . وكان من أصنام العرب أيضا اللات والعزى ومناة . ومن العرب كذلك من كان يعبد الكواكب ويؤمن بالتنجيم ، فكانت حمير تعبد الشمس ، وكنانة القمر ، وهنـالك قبائل أخرى كان يتوجه بعضها بالعبادة الى المشترى ، أو الى الشعرى ، او الى عطارد (٤)

ولعل أولئك العرب لم يكونوا يتصورون الاصنام خالقة لهذا الكون ، وانما كانوا يؤمنون بالله خلقه ، والى هذا يشير صاعد الاندلسي بقوله : «وجميع عبدة الاوثان من العرب موحدة لله تعالى ، وانما كانت عبـادتهم لها ضربا من التدين بدين الصابئة في تعظيم الكواكب والإصنام الممثلة بها في الهياكل لا على ما يعتقده الجهال بديانات الامم وآراء الفرق من ان عبدة الاوثان ترى ان الاوثان هي **الخالقة للعالم** ، ولم يعتقد قط هـذا الرأي صاحب فكرة ، ولا دان به صاحب عقل ، دليل ذلك قول الله تبارك وتعالى «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » سورة الزمر آية ٣ »(٥)

على أنه يجب التنبيه الى أنه ليس من الصواب ان يصف صاعد اولئك العرب بأنهم موحدة لله ، لان التوحيد الحقيقي لله ينتفي معه اتخاذ الوسطاء والشركاء . واذا كان العرب قد عظموا أوثانهم وعبدوها لتقربهم الى الله زلفى ، فان هذا من قبيل الوثنية المشركة التي حاربها الاسلام حربا لا هوادة.

---

(٤) أنظر في تفصيل هذا : صـاعد الاندلسي : طبقات الامم ، المكتبة الحيدرية بالنجف ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م ، ص ٥٦ — ٥٧ .

(٥) طبقات الامم ، ص ٥٧ .

فيها ، فالتوحيد الحقيقي هو الذي اشار إليه القرآن على لسان أنبيائه فى مثل قوله تعالى : « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » [سورة الاعراف ـ آية ٥٩] .

ومن هنا كان العرب فى جاهليتهم منحرفين فى عقيدتهم عن التوحيد وكانت نظرتهم الى الكون — حتى مع الاقرار بوجود خالق له — نظرة تدل على سطحية فى التفكير ، ولا تخلو من طابع اسطورى يتمثل فى الاعتقاد بأن الاصنام والكواكب تضر وتنفع ، ولذا يتوجه اليها بالعبادة .

وكذلك كان كثير من العرب فى الجاهلية — خصوصا داخل الجزيرة — تسودهم نزعة مادية شكية ، ومن شأن هذه المادية أن تحول بينه وبين قبول الافكار الدينيه ، فكانوا ينكرون مثلا النبوة والبعث لايمانه بالدهر ، فعرفوا لذلك بالدهرية (٦) .

---

(٦) يذكر المستشرق دى بور فى كتابه «تاريخ الفلسفة فى الاسلام» أن مذهب الدهرية-zurwanismus من زرفان ، «زروان = دهر» من ديانات الفرس القديمة ، وفيه الغيت النظرة الاثنينية للكون (Dualismus) ، وذلك بأن جعل الزمان الذى لا نهاية له «زرفان = دهر» هو المبدأ الاسمى واعتبر هو عين القدر والفلك الاعظم أو حركة الافلاك «تاريخ الفلسفة فى الاسلام ، ترجمة الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريدة ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ١٢ — ١٣» ، وربما عرف العرب شيئا من هذا المذهب عن طريق اتصالهم فى الجاهلية بالفرس . وقد عنى متكلمو الاسلام بالرد على هذا المذهب الذى أصبح مع مرور الزمان فى نظر المسلمين مساويا لانكار الالوهية والحياة الاخرى أو القول بالمادية مع انكار الخالق والقول بقدم العالم «تعليق الدكتور أبو ريدة ، نفس المرجع ، ص ١١٩ — ١٢٠» . وقد وجدنا لابن رشد كلاما عن الدهرية يصفهم فيه بأنهم جحدوا الصانع ، ومثالهم كمثل من يرى المصنوعات فلم يعترف بأنها مصنوعات بل ينسب ما فيها من الصنعة الى الاتفاق والامر الذى يحدث من ذاته «الكشف عن مناهج الادلة ، القاهرة ١٣٢٨ هـ ، ص ٤٩» ، وهو الذى يذكره ابن رشد يذكرنا بآراء بعض الفلاسفة الماديين فى العصر الحاضر .

وقد صور القرآن عقيدتهم في قوله تعالى : «وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر» (سورة الجاثية ـــ آية ٢٤) .

ويقول صاعد الاندلسي مبينا موقف القرآن من الدهرية «وجـــاء نص القرآن بمخالفتهم «اي الدهرية» في البعث والنشور ونبوة محمد «ص» ، فكان جمهورهم ينكر ذلك ، لا يصدق بالمعاد ، ولا يقول بالجزاء ، ويرى أن العالم لا يخرب ولا يبيد ، وان كان مخلوقا مبتدعا»(٧) .

والواقع ان نظرة الدهرية الى الانسان نظرة مادية خالصة فهي تنظر اليه من خلال واقعه المادي فقط ، وتنظر الى الكون على أنه وان كان حادثا مخلوقا الا انه ازلي لا يفني ولا يبيد ، فليس ثمة حادثا الا الدهر أو الزمان ، وليس هناك من بعث ولا نشور ، ولا حساب ولا جزاء .

ولم تكن هذه النظرة عندهم وليدة فلسفة أو تفكير منظم ، وانما هي مجرد انطباع عن الكون يدل على سذاجة في التفكير .

ومن هنا وجدت الدعوة الاسلامية صعوبة كبيرة في الانتشـــار أول الامر لما كان موجودا عند العرب من هذه المعتقدات والآراء المادية ، ولمـــا كان مقترنا بها من عناد شديد وميل الى الجدل وعدم التصديق بسهولة ، وهذا يفسر لنا لماذا طولب الرسول «ص» بخوارق العادات ، على نحو ما يشير اليـــه قوله تعالى : «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنـــا من الارض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالهـــا تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينـــا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في الســـــماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رســـولا» «ســورة الاسراء ـــ آية ٩٠ ـــ ٩٣» .

ولم يكن طلب خوارق العادات من الرسول «ص» على هـــذا النحو

---

(٧) طبقات الامم ، ص ٥٧ .

الا عنادا أو صدا عن الدعوة ، فالقرآن نفسه قد انطوى على الآيات الناطقة بصدق الرسول «ص» فيما جاء به وصلاح دعوته للفرد وللمجتمع ، ولو أن أولئك المعاندين حرروا عقولهم من أوهامها ، ونظروا الى القرآن نظرة عقلية ، لما طالبوا الرسول «ص» بالآيات أو الخوارق ، والى ذلك الاشارة بقوله تعالى : «وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون» «سورة العنكبوت آية ٥٠ — ٥١» .

وقد حارب الرسول «ص» فيما حارب من اعتقادات الجاهليين التنجيم والكهانة والعرافة ، وهى من مظاهر بدائية التفكير التى تتعارض مع العلم الصحيح . فقد نهى الرسول «ص» نهيا صريحا عن اتيان الكهان والعرافين(٨) الذين يزعمون لانفسهم قدرة على الاخبار عن الكوائن فى مستقبل الزمان ، وعلى معرفة الاسرار ومطالعة عالم الغيب ، كما ابطل «ص» الايمان بالغيلان(٩) .

وما له دلالة فى هذا الصدد أيضا ان الرسول «ص» نهى عن الربط بين ظواهر الطبيعة وبين أى أسباب وهمية لا تمت اليها بصلة(١٠) ،

---

(٨) انظر : الحافظ المنذرى : مختصر صحيح مسلم بتحقيق محمد ناصر الدين الالبانى ، سلسلة احياء التراث الاسلامى التى تصدرها وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية بدولة الكويت ، الحديث رقم ٣٣٣ فى النهى عن أتيان الكهان ، ورقم ١٤٩٦ فى النهى عن أتيان العراف .

(٩) مختصر صحيح مسلم ، الحديث رقم ١٤٨٩ ، يقول المحقق : «قال جمهور العلماء : كانت العرب تزعم أن الغيلان فى الفلوات ، وهى جنس من الشياطين تتراءى للناس وتتغول تغولا ، أى تتلون تلونا ، فتضلهم عن الطريق فتهلكهم ، فأبطل النبى «ص» ذلك» .

(١٠) قارن هنا ردود ابن حزم الاندلسى على أصحاب التنجيم والسحر وعلى أولئك الذين يتصورون الكون تصورا ميثولوجيا. وذلك فى الفصل ، جـ ٥ ، ص ٢ وما بعدها ، جـ ٢ ، ص ٩٣ وما بعدها ، وهى تدل على علمية التفكير التى يمكن أن تستمد من أصول الاسلام .

فيوم توفى ابنه ابراهيم حدث كسوف للشمس ظنه الناس معجزة تحدث لهذه المناسبة ، فقال «ص» : «أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت احد ولا لحياته» .

هذا ، وقد ذكر القرآن الكريم طائفة من الديانات السماوية وغير السماوية التى عرفها العرب فى جاهليتهم ، والتى انحرف بها اصحابها عن التوحيد الصحيح الى الوان من الشرك والوثنية ، يدلنا على ذلك قوله تعالى : «أن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد» سورة الحج آية ١٧» . وقوله تعالى : «ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم» «سورة البقرة — آية ٦٢» .

وتعرض القرآن لذكر مثل هذه الديانات والمذاهب لابد وان يثير عند المسلم تساؤلات كثيرة حولها ، وحول الفرق بين كل منها وبين العقيدة الاسلامية .

ولما كانت تلك الديانات والمذاهب لها تصوراتها للكون وعلاقة الانسان به ، فانه يمكننا القول بأن القرآن قد فتح أمام العقل بابا واسعا للنظر فى الكون نظرة أساسها المقارنة بين ما جاء به وما جاءت به تلك الديانات والمذاهب القديمة .

والقرآن يلجأ دائما الى الحجة العقلية فى الرد على المخالفين لعقائده وتفنيد دعاواهم . وحسبنا أن نشير فى هذا الصدد — على سبيل المثال لا الحصر — الى بعض ردود القرآن على مخالفيه :

فمن ذلك رده على مؤلهى الكواكب من الصابئة بمثل هذه الآيات التى تصور حال ابراهيم عليه السلام حين نظر الى الكون واهتدى الى وجود خالق له بعقله ، وهى :

«وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والارض وليكون من الموقنين. فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما افل قال لا احب الآفلين .

فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما افل قال لئن لم يهـــدنى ربى لاك
من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا اكبر .
افلت قال يا قوم انى برىء ممـــــا تشركون . انى وجهت وجهى للذى
السمـــاوات والارض حنيفا وما أنا من المشركين» «ســـورة الانعـــام
٧٥ ــ ٧٩» .

وهذه الآيات الكريمة لا تصلح فقط للرد على مؤلهة الكواكب ، و
هى ـــ فى رأى الفيلسوف ابن رشد ـــ تشير الى علم خص الله به ابرا
عليه السلام ، وهو علم النظر فى الـــكون ، واعتبـــار الموجودات فى
بالعقل(١١) .

ويرد القرآن كذلك على من يتخذون الآلهة (١٢) بمثل قوله تعالى :
كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» «سورة الانبياء آية ٢٢» .

ويرى بعض المتكلمين أن هذه الآية انمـــا تشير الى الدليـــل الم
المعروف عندهم بدليل التمانع ، ومؤداه : لو كان للعالم صـــانعان ، فعن
اختلاف هذين الصانعين ، كأن يريد احدهما تحريك جسم والآخر تسكين
أو يريد أحـــدهما احياءه والآخر اماتته ، فاما أن يحصـــل مرادهما أو
أحدهما ، أو لا يحصل مراد واحد منهما .

---

(١١) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، القـــا
١٣١٠ هـ ، ص ٢ ص ٣ .

(١٢) كانت هناك قديما مذاهب تعدد الآلهة ، ابرزها مذاهب المج
فى فارس على اختلاف صورها ، وكانت هذه المـــذاهب تنطوى على ال
بأصلين اثنين مدبرين للعالم : النور والظلمة ، أو الخير والشر ، أو يز
واهرمن . وقد عرض كتاب الفرق من المسلمين لهذه المذاهب بالرد والتف
أنظر عنها ، الشهرستانى ، الملل والنحل ، القـــاهرة ١٣١٧ هـ ، بهـــا
الفصل لابن حزم ، جـ ٢ ، ص ٧٢ وما بعدها . وانظر أيضا ردود ابن
على هذه المذاهب فى الفصل ، جـ ١ ص ٣٤ وما بعدها .

والاول ممتنع ، لانه يستلزم الجمع بين الضدين ، والثالث ممتنع لانه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون ، ويستلزم أيضا عجز كل منهما ، والعاجز لا يكون الها .

واذا حصل مراد أحدهما دون الآخر كان هذا هو الاله القادر ، والآخر عاجزا لا يصلح للالهية(١٢).

يريد القرآن اذن لعقل الانسان أن يفكر وان يستنبط من انتظام أمر العالم وحدة صانعة ، فتدبير هذا الكون لا يكون لالهين أو اكثر لما يترتب على ذلك من الاختلال فيه . والى هذا المعنى الاشارة أيضا فى قوله تعالى : «ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون» «سورة المؤمنون آية ٩١» .

ويرد القرآن كذلك على من ينكرون البعث ، أو بعبارة أخرى ينكرون أن يكون لوجود الانسان فى هذا الكون غاية أبعد لا تتحقق الا فى حياة اخرى بعد هذه الحياة ، ويخاطبهم بنوع من الاستدلال المباشر ، وهو أنه ما دمتم قد سلمتم بأن الله خلق الانسان أول مرة ، فمن التناقض أن لا تسلموا بأنه قادر على خلقه مرة اخرى ، فالله لا يكون خالقا وغير خالق فى آن واحد ، ثم اى الخلقين أصعب ، خلق السماوات والارض أم خلق الانسان ؟ كل هذا خطاب صريح للعقل يتبين من قوله تعالى :

«أو لم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذى خلق السماوات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم. انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء واليه ترجعون» «سورة يس آية ٧٧ — ٨٣» .

---

(١٢) شرح العقيدة الطحاوية فى العقيدة السلفية ، المطبعة السلفية بمكة المكرمة ، ١٣٤٩ هـ ، ص ٢٠ .

نخلص مما سبق الى القول بأن القرآن الكريم أراد ان يطهر العقول من الاعتقادات الباطلة الموروثة التى سبقت نزوله كالتصورات الميثولوجية التى تفسر الكون تفسيرا اسطوريا ، وكالوثنية والشرك وعبادة الافراد وتعدد الالهة ، وتاليه الدهر أو الطبيعة ، وانكار الغائية فى الكون وفى حياة الانسان ، وانكار البعث وما الى ذلك .

فاذا تخلص العقل الانسانى عن مثل هذه العقائد والتصورات الباطلة التى لا يقوم عليها دليل أو برهان ، استطاع ان يقبل متحررا من كل قيد على النظر فى الكون نظرة موضوعية فاحصة يتوصل منها الى الايمان بوجود خالق له ، والى فهم صلته بهذا الكون وبخالقه ، ورسالته فى هذه الحياة الدنيا .

وهذا يقودنا الى الكلام عن الخطوة الثانية فى المنهج الذى يهدينا القرآن اليه ، وسنحاول ان نلقى فيما يلى مزيدا من الضوء عليها :

• • •

الخطوة الثانية فى منهج البحث الكونى تتمثل فى اصطناع الاستدلالين القياسى والاستقرائى .

على انه يجب أن ننبه بادىء ذى بدء الى ان القرآن ليس كتابا فى المنطق ، ولكنه يحتوى على الاصول العامة للدلائل العقلية ، أما تفصيلاته فليس من وظيفة القرآن ان يتعرض لها ، ويكفى القرآن أنه ينبه الى مثل تلك الدلائل الاجمالية ليمضى العقل البشرى بعد ذلك الى وضع تفاصيله وكشف قوانينها وطرق استخدامها .

ومما يلاحظه القارىء للقرآن ان الخطاب فيه موجه اساسا الى العقول السليمة بأوضح استدلال وأيسره ، والى القلوب الصافية بابلغ بيان وأوجزه . ولا يعلو عليه فى هذا شىء مما كتب الفلاسفة والمفكرون على اختلاف بيئاتهم وازمانهم ، بدليل ما أحدثه من الاثر الفكرى الهائل فى حياة البشرية منذ نزول الوحى به الى اليوم .

وقد فطن الى ذلك كبار المشتغلين بالفلسفة والمعقولات من المسلمين

فذكروا انه قد انطوى على مختلف أنواع الحجج والبراهين بحيث لا يمكن أن يزاد عليه فى هذا شيء ، ومن هؤلاء الامام الغزالى اذ يقــول : «وأول ما يستضاء به من الابواب ، ويسلك من طريق النظر والاعتبار ، ما أرشد اليه القرآن ، فليس بعد بيان الله بيان»(١٤) .

ويقول الامام فخر الدين الرازى ، احد ائمة الاشعرية من المتكلمين فى كتابه «الاربعين» فى الكلام : «اقر الكل بانه لا يمكن أن يزاد فى تقرير الدلائل «العقلية» على ما ورد فى القرآن»(١٥) .

والحقيقة أننا لو نظرنا الى القرآن نظرة متانية لوجــدنا أنه ينبه العقول الى استخدام أنواع الاستدلال العقلى المختلفة ، مباشرا كان أو غير مباشر فهو كما يدعو الى استنباط نتيجة من مقــدمة أو مقدمات ثبتت صحتها فى معرض الاستدلال على العقائد النظرية ، (انظر الايات من آخر سورة يس آية ٧٧ ـــ ٨٣) نراه يدعونا ايضا الى استخدام المشاهدة الحسية واستقراء الجزئيات من عالم الطبيعة ليصل بنا الى معرفة القوانين العامة التى تسير هذه الطبيعة بمقتضاها .

فمن الآيات التى تدل على استخدام القياس العقلى قوله تعــالى : «فاعتبروا يا أولى الابصار» (سورة الحشر ـــ آية ٢) .

ويرى الفيلسوف ابن رشد أن الاعتبار المشار اليه فى هذه الآية هو القيــاس بنوعيه ، العقلى والفقهى (١٦) . فكأن الآية اذن تأمرنا على سبيل

---

(١٤) احياء علوم الدين ، القاهرة ١٣٣٤ هـ ، جـ ١ ، ص ٩٣ .

(١٥) بدر الدين الصنعانى : ترجيح اســاليب القرآن على اســاليب اليونان ، ص ١٧ .

(١٦) القياس لغة : التقــدير ، يقال قست النعل بالنعل اذا قــدرته وسويته ، وهو عبارة عن رد الشيء الى نظيره (تعريفات الجرجانى ، مادة «القياس») والقياس عند المناطقة اصطلاحا هو قول مؤلف من قضايا اذا سلمت لزم عنها لذاتهــا قول آخر . ومن أمثلة القيــاس العقلى قولنا : كل جسم مؤلف ، وكل مؤلف حــادث ، فلزم ان كل جسم حــادث ، ومن أمثلة القياس الفقهى قولنا : كل نبيذ مسكر ، وكل مسكر حرام ، فلزم ان كل نبيذ حرام (المستصفى للغزالى ، جـ ١ ، ص ٣٨ ـــ ٤٢) .

الوجوب الوجوب باستخدام القياس بنوعيه المشار اليهما . وفى الحقي
أن فهم ابن رشد لمعنى الاعتبار فى هذه الآية ليس غريبا ، لان الاعتبار
«النظر فى الحكم الثابت لاى معنى ثبت ، والحاق نظيره به ، وهـذا هـ
القياس» (١٧) ، على حد تعبير الجرجانى فى «التعريفات» .

ومن الآيات التى تدل على استخدام الاستقراء ، والنظـرة العلم
الفاحصة عن الاشياء وكيف تتركب ، قوله تعالى : «أفلا ينظرون الى الا
كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت والى الجبـال كيف نصبت ، وا
الارض كيف سطحت» (سورة الغاشية ، آية ١٧ — ٢٠) .

وتأمل كلمة «كيف» فى هـذه الآيات لترى أنهـا تعبر عن روح الـ
الحديث كله ومنهجه . ذلك أن العلم — فى مفهوم علماء منـاهج البحـ
المحدثين — هو أجـابة عن السؤال «كيف» ، وليس أجابة عن السـؤ
«لماذا» . بعبارة أخرى العلم يعنى ببيان كيف تتركب الظـاهرة ، ولا يعـ
بالبحث عن الغاية منها .

فالقرآن حين يدعونا الى البحث فى كيفية خلق الحيـوان والكواكـ
والارض انما يمـدنا بالمنهج الصحيح للبحث الاسـتقرائى فى علوم شـ
كعلوم الحياة والفلك والجيولوجيا والجغرافيـا وغيرها ، دون أن يـكو
القرآن نفسه كتابا يتناول موضوعات هذه العلوم الجزئية .

ومما له دلالة فى هذا الصدد ايضـا قول الله تعـالى : «ان فى خـ
السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجـرى فى البـ
بما ينفع الناس وما انزل من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبـ
فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارضـ
لآيات لقوم يعقلون» (سـورة البقرة ، آية ١٦٤) . فهـذه الآية الـكريـ
تدلنا على أن افراد البشر الذين يعقلون — اى يستخدمون عقولهم استخدا
سليما — هم الذين ينظرون فى خلق السماوات والارض ، وفى الظواهـ

---

(١٧) تعريفات الجرجانى ، مادة : «الأعتبار» .

الكونية على اختلافها وهم الذين يربطون فى نظرتهم تلك بين الاسباب والمسببات فيعرفون كيف خلقت السماوات والارض ، وكيف يتعاقب الليل والنهار ، وكيف تسير السفن فى البحار ، وكيف ينزل المطر ، وما هى عوامل نزوله ، وكيف يرتبط بعضها بالبعض الآخر ، ويعرفون كيف تحيا الدواب على هذه الارض وعلل حياتها ، وما الى ذلك .

وينبه القرآن الى أن النظام الكونى مطرد السنن له قوانين لا تتبدل وهى ما نصل اليه بالاستقراء العلمى القائم على المشاهدة الحسية ، والى ذلك الاشارة بمثل قوله تعالى : «لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون» «سورة يس ، آية ٤٠» .

وكذلك الاجتماع البشرى له قوانين لها نفس الاطراد والثبات ، ويمكن معرفة ذلك بالاستقراء التاريخى ، والى ذلك الاشارة بمثل قوله تعالى : «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» (سورة الرعد — آية ١١) «سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا» (سورة الفتح — آية ٢٣) ، «فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله» (سورة الروم — آية ٣٠) .

على أن الانسان لا يستطيع أن يصل من التأمل فى الكون الى معرفة نظامه وقوانينه الا اذا وثق بنفسه أولا ، وآمن بأن الكون المشاهد خاضع لادراكه وبحثه ، وبأن ظواهره ليست بالشىء المبهم الغامض الذى لا يفسر ، وبأن فى مقدوره الاستفادة من الكون واستغلال خيراته على أوسع نطاق لتأمين حياته ورفاهيتها .

من أجل هذا ذكر القرآن للانسان أن الكون كله مسخر له ، وتأمل فى قوله تعالى : «وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الارض جميعا منه» (سورة الجاثية — آية ١٣) ، وقوله تعالى «وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون وما ذرأ لكم فى الارض مختلفا ألوانه ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها

وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . والقى ف
الارض رواسى أن تميد بكم وانهـــارا وسبلا لعلكم تهتـــدون . وعـــلاما
وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وأن تعـــد
نعمة الله لا تحصوها أن الله لغفور رحيم» (سورة النحل ــ آية ١٢ ــ ٨
لترى ان توجيه القرآن فى هذا الصـــدد مضاد تماما للتصـــورات الكو
الميثولوجية القـــديمة التى جعلت الإنســـان البـــدائى يستشعر الخوف
الكون ، ويعتبره خارجا تماما عن نطاق عمله وقـــدرته ، ويفسر ظـــواه
المختلفـــة بعلل وهمية خيـــرة او شريرة ، أو آلهه يسترضيهـــا بألوان
الطقوس البدائيـــة .

ان تأكيد القرآن على إن الكون كله مسخر للانســـان هو فى نف
الوقت تأكيد على روح المنهج العلمى الصحيح الذى يحاول دائما استكش
ماهو مجهول من هذا الكون وظواهره على أساس من الثقة بقدرة الانس
وبالعلم فى مواجهة الطبيعة .

وثمة ملاحظة هنا على جانب كبير من الاهميـــة وهى أنه حينما يـ
الحافز الى الاستفادة من الكون بمنهج العلم هو عقيدة الانسان الدينية
ورغبته فى التقرب الى الله ، والظفر بثوابه فى حيـــاة اخرى ، فانه يـ
حافزا قويا للغـــاية . ومن الآيات القرآنية ذات الدلالة العميقة فى هـ
الصدد قوله تعالى : «او لم ينظروا فى ملكوت السماوات والارض وما ـ
الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنو
(سورة الاعراف ــ آية ١٨٥).

لقد اعتبر الله تعالى العلم بالمخلوقات على اختلافها من أهم الاع
الصالحة التى يجب على المسلم ان يحسب لها حسابا فى ميزان أعماله
الحياة الإخرى ، فعليه اذن إن يبذل قصارى جهده من اجل استكناه الـ
وما فيه من موجودات ، وذلك قبل إن يفاجئه اجله وهو أغفل ما يكون ،

ولهذا ذهب بعض علماء العقائد فى الإسلام الى حد القول بأن الاسـ
العقلى من الأصول المقررة فى الأسلام ، فالى جانب المعتزلة الذين أو
معرفة الله بالعقل ، نجد الأشعرية ايضا يوجبون على كل مكلف الاسـ

على وجود الله بعقله ، ويقولون : لا يكون مسلما الا من استدل (١٨) .

ويمكننا القول مما سبق كله بأن القرآن الكريم قد حث الانسان على اصطناع منهج العلم الذى يتلخص فى النظر الى الكون بالقياس والاستقراء أو بهما معا (١٩) من اجل الوصول الى معرفة قوانينه العامة ، ثم مواصلة السير بعد ذلك الى معرفة الله .

ويمكننا ان نوضح ذلك بالرسم البيانى التالى :

	استدلال استقرائى		استدلال قياسى	
النظر الى الكون	←	معرفة الكون	←	معرفة الله
(السماوات والارض)		وقوانينه العامة		(صانع الكون)

هناك اذن مرحلتان يسير فيهما الناظر الى الكون .

المرحلة الاولى يستخدم فيها الناظر استدلالا استقرائيا يكشف به عن الاسباب والمسببات ، ويتوصل منه الى صياغة القوانين العامة التى تخضع لها الموجودات .

والمرحلة الثانية يستخدم فيها تفكرا عقليا اساسه الاستدلال القياسى وينتهى منه الى اثبات وجود صانع مدبر للكون عن طريق ما يشاهده فيه من غائية الظواهر التى لا تفسرها له المصادفة .

وبهذا ينطلق الناظر من معرفة المصنوعات الى معرفة الصانع ، و «كلما كانت المعرفة بصنعتها اتم كانت المعرفة بالصانع اتم» (٢٠) على حد تعبير ابن رشد .

---

(١٨) ابن حزم ، الفصل فى الملل والاهواء والنحل ، جـ ٤ ، ص ٣٥ .

(١٩) المنهج العلمى لا يكمل الا باستخدام الاستقراء والقياس معا . اذ انه بعد أن يتوصل العالم من استقراء الجزئيات من عالم الطبيعة الى القانون العام أو القانون العلمى ، يعود فيطبق هذا القانون على جزئيات جديدة مستخدما القياس ، فالعالم لا غنى له عن استخدام الاستدلالين الاستقرائى والقياسى معا .

(٢٠) فصل المقال ، ص ٢ .

والى هذا المعنى نفسه يشير احد العلماء المعاصرين وهو البرت ماكومب ونشتر بقوله : «ان الانسان لا يستطيع ان يدرس اعمال اى صانع من الصناع دون أن يحيط بقدر من المعلومات عن الصانع الذى ابدع تلك الاعمال» وكذلك نجد اننا كلما تعمقنا فى دراسة اسرار هذا الكون ازددنا معرفة بطبيعة الخالق الاعلى الذى أبدعه (١)

ولقد أشار القرآن الى المرحلتين اللتين ذكرنا فى قوله تعالى : —

«ان فى خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار» (سورة آل عمران — آية ١٩٠ — ١٩١) .

وقد يقف بعض الناظرين عند المرحلة الاولى ، ولا يتجاوزونها الى الثانية ، وهؤلاء «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» (سورة الروم آية ٧) ، انهم قد وصلوا الى منتصف الطريق وفاتهم الغرض البعيد من البحث فى آيات الله الكونية فكانوا بذلك محجوبين عن الحقيقة ، محصورين فى دائرة المادة لا يستطيعون الخروج منها الى ما وراءها آثروا النفع العاجل على النفع الآجل ، وشغلوا بالوسائل عن الغايات «ذلك مبلغهم من العلم» (سورة النجم — آية ٣٠)

وما أجمل هذا المعنى حين يعبر عنه ابن عطاء الله السكندرى فى «الحكم» بقوله : «الكائن فى الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجون بمحيطاته ، ومحصور فى هيكل ذاته» (٢) .

---

(١) انظر مجموعة مقالات لبعض العلماء المعاصرين نشرها جون كلوفر مونسما فى كتاب بعنوان : «الله يتجلى فى عصر العلم» ، الترجمة العربية دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ص ١٠٧ .

(٢) شرح الرندى على الحكم ، القاهرة ١٢٨٧ هـ ، ج ٢ ، ص ٩٧

اما ما يراه البعض من ضرورة الموضوعية والاعتماد على التجـــربة الحسية واخضاع الظواهر للقياس الكمى فى البحث العلمى ، فهذا ولاشك من خصائص المرحلة الاولى ويبقى بعد ذلك أن يسير العالم من المرحلة الاولى وهى العلم ، الى المرحلة الثـــانية ، وهى الايمان ، وذلك اذا أراد أن يحقق انسانيته ، وأن يجعل لحياته معنى . ان نهاية العلم فى الحقيقـــة هى بداية الايمان الصحيح لا الايمان التقليدى ، وتأمل عمق المعنى فى قوله تعـــالى : «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» (سورة الزمر ــ آية ٩) ، وقوله تعالى : «انما يخشى الله من عباده العلماء» (سورة فاطر ــ آية ٢٨).

صورة الكون

والآن بعد ان تبين لنا اتفاق الاسلام مع العلم روحـــا ومنهجا • وانه يوجه العقل البشرى الى خطوات منهج متكامل للكشف عن أسرار الـكون وما فيه من كائنات وقبل ان نمضى فى الحديث عن صـــورة الكون ومكان الانســـان فيها فى القـــرآن الـكريم • لنرى الى أى حـــد تتفق مع تلك التى يمدنا العلم الحديث بها• نحب ان ننبه القارىء الى حقيقة هامة • وهى أن القرآن الكريم ليس كتـــاب علم يشتمل على نظـــريات فى علوم الـكون •• ان كل ما يشتمل عليه القرآن متعلقا بالكون ونشاته وتطوره لا يعدو الحقائق العامة المجملة التى ياتى العلم بعد ذلك ليكشف عن تفصيلاتها • ومن هنـــا لا نرى ان يقحم الدين بمناسبة وغير مناسبة فى تفسير الظواهر الكونية • اذ ليس هذا من شأن الدين •

ونذكر هنا قول الرسول (ص) : «انتم اعلم بشئون دنياكم» •

والحقيقة هى ان القرآن حينما يشير الى الظواهر الكونية انما يشير اليها على سبيل ايقاظ العقل من سباته ليتفهم هذه الظواهر ويفسرهـــا التفسير العلمى الصحيح فعباراته اشبه شىء بالومضـــات القوية التى تنير أمام هذا العقل السبيل الى التوصل الى علم صحيح بالكون وقوانينه •

ومن المعروف أن العقل البشرى يثير بطبيعته تساؤلات عـــدة حول الـــكون :

هل الكون حادث أو قديم ؟ واذا كان حادثا فكيف حدث ؟ وهل يتناهى أو لا يتناهى ؟ وهل توجد أكوان أخرى أو لا توجد ؟ وما هى علة ما فى هذا الكون من النظام والاحكام ؟ وهل له غاية ؟

كان لابد للقرآن الكريم من أن يلبى احتياجات البشر العقلية فى ا
على مثل تلك التساؤلات .

لقد قرر القرآن الكريم حقائق كثيرة تتعلق بالكون اهمها انه حـ
مخلوق ، وكل ما فيه من الكائنات له بداية ونهاية ، وليس ثمة موجود
أبدى الا الله «الخالق البارىء المصـــــور» (سورة الحشر ــ آية ٢٤
«بديع السماوات والارض» (ســـورة البقرة ــ آية ١١٧) ، و «هـــو
والاخر» (سورة الحديد ــ آية ٣) ؛ واليه ترجع الموجـودات كلها من
هو علتها الاولى ، لقوله تعالى : «وان الى ربك المنتهى» (ســـورة النـ
آية ٤٢) ، والمتصفح للقرآن يرى انه يقرر فى وضوح لا لبس فيه الثنائي
الله والعالم(٢م) . ومن الحقائق عن الكون انه غير مصور فى مداركنا .

(٢م) على الرغم من وضوح هذه الثنائية بين الله والعالم فى نصـ
القرآن ، ذهب بعض مفكرى الاسلام الى القول بفيض العالم او صـــ
عن الله ، وهذا هو عين مذهب افلوطين السكندرى فى الفيض او الصـ
(Emanation) ومن هؤلاء بعض فلاسفة الاسلام وعلى الاخص الفـــا
فى نظريته فى فيض العقول ، وترتب الموجـــودات عن الاول . ومع ا
بالفيض او الصـــدور تنتفى فكرة الخلق من العـــدم (ation ex nihilo
وكذلك تصور بعض غلاة الشيعة كالاسماعيلية العالم على انه سلسلة
الفيوضـات عن المبـــدأ الاول على نحو خاص يتفق مع نظريتهم فى الاما
وكذلك ذهب متفلسفة الصوفية من اصحاب وحـــدة الوجود (ntheism
كابن عربى الى القول بأن العالم موجود بواسطة الحقيقـــة المحمدية
هى أول تعين فاضت عنه ســـائر التعينـــات الاخرى مادية كانت أو رو
«انظر كتابنا ، علم الكلام وبعض مشكلاته ؛ القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٩٣»

وجميع القائلين بالصـــدور من مفـــكرى الاســـلام يعمدون الى تا
نصوص القرآن تأويلات فلسفية خاصة لتبدو متفقة مع ما يذهبون اليـ
من مذاهب ، والحديث عن هـــذه التأويلات يخرجنا عن موضـــوع هـ
البحث .

أما المتكلمون من المسلمين فقـــد عبروا عن الثنائية بين الله والعـــ
قائلين : «ليس فى الوجود الا الخالق وخلقه» «الفصل لابن حزم ، جـ ،
ص ٩٩» ، وكل ما فى الكون دون الله جواهر وأعراض «تفسير المرجـــع
جـ ٣ ، ص ٩٠ــ٩١ ، ص ٩٤ ، جـ ٥ ص ٤٩» وقد أوجده الله على سبيل

يشير القرآن الى ان هناك عوالم ومخلوقات اخرى لا نعلم نحن منها شيئا ، فيقول تعالى : «ويخلق مالا تعلمون» (سورة النحل — آية ٨) .

وكيف يمكن أن نحيط بالفضاء الخارجي والعوالم التي من حولنا لا حصر لها والمسافات التي بينها لا يتصورها عقل انسان ؟ اننا ننتمي الى كرة الارض ، وهي تنتمي الى مجموعتنا الشمسية ، ومجموعتنا الشمسية تقع في مجرة تحتوى على ملايين المجموعات الشبيهة بها ، وفي الكون ملايين المجرات ! والمسافات بينا وبين النجوم تقاس احيانا بآلاف السنين الضوئية ، وسرعة الضوء ٣٠٠٠٠٠ كيلو متر في الثانية الواحدة !

ان الانسان اذا تأمل هذا الكون لا يمكن له الا أن يسلم بأن نسبته ، بكرته الارضية كلها ، الى العوالم الاخرى التي خلقها الله نسبة توجب تلاشية !

هذا اذا نظرنا الى العالم الاكبر (macrocosme) ، اما اذا نظرنا الى الانسان نفسه فسنجده عالما قائما بذاته ، وهو لا يزال مجهولا من نفسه الى الآن ، ولم يدرك بعد أسرار كثير من وظائف جسمه وعقله ، ولا يعرف ما هو مصيره بعد الموت بامكانياته المادية التي يغتر بها .

أما اذا نظرنا الى عالم الاشياء المتناهية في الصغر (microcosme) فسنجد الذرة من حيث تكوينها شبيهة بالمجموعة الشمسية ، وسنجد كائنات

= الاختراع والابداع واحداث الشيء من لاشيء بمعنى اخراجه من العدم الى الوجود «نفس المرجع ، جـ ٣ ، ص ٦٤» .

واما المعتدلون من صوفية الاسلام من أهل السنة ، فيقولون ان الثنائية بين الله والعالم قائمة ، ولكن الصوفي في حال الفناء عن ذاته يشهد الوحدة في الوجود كله شهودا ذوقيا بمعنى تلاشي الموجودات بالقياس الى الله كما يتلاشى ضوء الشمعة في ضوء الشمس . وهذه الوحدة الشهودية قائمة على أساس الذوق والعيان لا الاستدلال والبرهان. قارن كتابنا ، ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٣٠٤ وما بعدها .

ذات خلية واحدة لها جميع وظائف الحياة ، يقول سيسل هامان : «عندما تذهب الى المعمل ونفحص قطره من ماء مستنقع تحت المجهر لكى نشاهد سكانها ، فاننا نرى احدى عجائب هذا الكون : فتلك الاميبا تتحرك فى بطء ، وتتجه نحو كائن صغير فتحوطه بجسمها فاذا به فى داخلها ، واذا به يتم هضمه وتمثيله داخل جسمها الرقيق ، بل اننا نستطيع أن نرى فضلاته تخرج من جسم الاميبا قبل أن نرفع اعيننا عن المجهر . فاذا لاحظنا هذا الحيوان فترة أطول ، فاننا نشاهد كيف ينشطر جسمه شطرين ، ثم ينمو كل من هذين الشطرين ليكون حيوانا جديدا كاملا ، تلك خلية واحدة تقوم بجميع وظائف الحياة التى تحتاج الكائنات الكبيرة الاخرى فى أدائها الى آلاف الخلايا أو ملايينها . لا شك فى أن صناعة هذا الحيوان العجيب الذى بلغ من الصغر حد النهاية تحتاج الى أكثر من مصادفة»(٤٢) .

الحقيقة أن النظر فى الكون أو الآفاق البعيدة بعدا شاسعا ، والنظر فى الانسان والكائنات الدقيقة جدا ، يدلنا على آيات الخالق التى لا حصر لها ، والتى ستتجلى للانسان دائما وابدا ، وصدق الله تعالى اذ يقول «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكفه بربك انه على كل شىء شهيد» «سورة فصلت ، آية ٥٣» .

واذا كنا لم نحط بعد علما بالكون المحسوس ولا بأنفسنا ، فكيف نزعم ادراك كنه الخالق وما اعمق المعنى فىقوله تعالى ، «لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار» «سورة الانعام ، آية ١٠٣» .

واذا تبين هذا كله نقول : اننا لا نستطيع بحسب القرآن ولا بحسب ما توصل اليه العلم الحديث أن نجزم بأن الكون يتناهى أو لا يتناهى ، وكل ما نعلم عنه هو انه غير محصور فى مداركنا .

واذا كان الكون بحسب ما ورد فى القرآن حادثا ، وله محدث هو الله ، فمن الطبيعى أن القول بأن الكون قد نشأ اتفاقا أو عن طريق المصادفة

---

(٤٢) الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ١٤٢ .

يكون متعارضا مع القرآن ، ومع ما جاء به من عقائد . بل انه يتعارض مع العلم ذاته ، يقول جون أدولف بوهلر : «عندما يطبق الانسان قوانين المصادفة لمعرفة مدى احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر فى الطبيعة ، مثل تكون جزىء واحد من جزيئات البروتين من العناصر التى تدخل فى تركيبه ، فاننا نجد عمر الارض ، الذى يقدر بما يقرب من ثلاثة بلايين من السنين أو اكثر لا يعتبر زمنا كافيا لحدوث هذه الظاهرة وتكوين هذا الجزىء عن طريق المصادفة . ان ذلك لا يمكن أن يحدث الا اذا كانت هنالك قوة موجهة تهدف الى غاية محدودة ، وتعنينا على ادراك كيف يخرج النظام من الفوضى»(٥م) .

ومما يظهرنا القرآن الكريم بعد هذا عليه أن العوالم المتعددة التى يشتمل عليها الكون لم نخلق فى وقت واحد ، فمنها ما هو سابق ومنهنا ما هو لاحق .

يقول تعالى : «وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام(٦م) وكان عرشه على الماء» «سورة هود ، آية ٧» .

وقد تساءل بعض المسلمين فى عصر النبى «ص» عن بداية العالم ، فذكر البخارى وغيره قال ، أهل اليمن لرسول الله «ص» جئناك لنتفقه فى الدين ، ونسألك عن أول هذا الامر ، فقال : «كان الله ولم يكن شىء قبله أو معه أو غيره وكان عرشه على الماء» .

(٥م) الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ١٠٢ — ١٠٣ .

(٦م) ليس المقصود هنا باليوم اليوم المعروف لنا ، فهناك نسبية فى حساب أيام الله أشار اليها القرآن نفسه ، فمرة يذكر على انه الف سنة «سورة الحج ، آية ٤٧» ، ومرة اخرى يذكر على انه خمسون الف سنة مما تعرف «سورة المعارج ، آية ٤» ، وقد يكون اكثر من ذلك حسب ما يقدر الله له .

ويقول شارح العقيدة الطحاوية موضحا المقصود من هذا الحديث :
«ان قول أهل اليمن ، جئنا نسألك عن أول هـذا الامر ، وهو اشـارة الى حاضر موجود مشهود «اى الكون المرئى» . والامر هنـا بمعنى المأمور ، اى الذى كونه الله بأمره» .

«وقد اجابهم النبى «ص» عن بدء هـذا العالم الموجود لا عن جنس المخلوقات «التى منها ما يتعلق بعالمنا ومنها ما لا يتعلق به» لانهم لم يسألوه عن ذلك» .

«وقد أخبرهم عن خلق السماوات والارض .. ، فظهر أن مقصوده اخباره اياهم ببدء السماوات والارض وما بينهمـا ، وهى المخلوقات التى خلقت فى ستة ايام : لا ابتداء خلق ما خلقه الله قبل ذلك» .

«ولا يظن أن معناه «اى معنى الحديث» الاخبار بتعطيل الرب تعالى دائما عن الفعل حتى خلق السماوات والارض» .

«وايضـا فقوله : «كان الله ولم يكن شىء قبله أو معـه أو غيره وكان عرشـه على الماء» لا يصح أن يكون المعنى انه تعالى موجود وحده لا مخلوق معه أصلا ، لان قوله : «وكان عرشـه على المـاء» يرد ذلك ، فان هـذه الجملة ، وهى «كان عرشه على المـاء» فان حالية أو معطوفة ، وعلى كلا التقـديرين فهو ، «اى العرش» ، مخلوق موجود فى ذلك الوقت . فعلم أن المراد من قـول الرسـول «ص» ، ولم يـكن شىء من العـالم المشهود»(٢٧) .

لقد أثبتنا هذا الكلام لشارح العقيدة الطحاوية بنصه لانه على جانب كبير من الاهمية ، فهو يوضح لنا أن فى القرآن والسنة ما يفيد أن ثمـة خلقا آخر كان موجودا قبل خلق هذا الكون الذى نراه ، ومنه تشكل هذا

---

(٢٧) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٦٦ — ٦٧ .

الاخير بما فيه . وهذا يعنى بعبارات اخرى أن هذا الكون لم يكن على ما هو عليه ، ولم يتم خلقه بصورة مكتملة دفعة واحدة ، بل كان هناك ترتب زمانى فى خلق الكائنات ، بل وتطور فى عملية الخلق ذاتها . وهذا متفق تماما مع ما يذهب اليه العلم الحديث الذى يحدد لاجرام المجموعة الشمسية وللارض أعمارا بواسطة حساب الاشعاع ، ويعين ازمانها التى نشأت فيها على سبيل التدريج(٢٨) .

---

(٢٨) فى بحث طريف لزميلنا الدكتور زغلول النجار الاستاذ المساعد بقسم الجيولوجيا بكلية العلوم بجامعة الكويت ، عنوانه «محاولات الانسان لتقدير عمر الارض» معلومات وافية عن طريقة الاشعاع فى حساب عمر الارض وأجرام المجموعة الشمسية ، نقتطف منه هذه النتائج التى توصل اليها العلماء فى هذا الصدد . يقول سيادته : ان اقصى حد لتكوين العناصر فى مجرتنا هو ٧٠٠٠ مليون سنة ، ومن ذلك استنتج العلماء ما يلى :

اولا : ان العناصر فى مجرتنا قد تكونت فى الفترة من ٧٠٠٠ الى ٦٥٠٠ مليون سنة .

ثانيا : ان الشمس قد تكثفت على هيئتها الحالية منذ ٦٠٠٠ مليون سنة .

ثالثا : ان الكواكب الابتدائية قد تحولت الى كواكب عادية منذ حوالى ٥٠٠٠ مليون سنة .

رابعا : ان الفصل الكيميائى فى أجسام الكواكب قديم منذ ٤٥٠٠ مليون سنة .

خامسا : ان القشرة الخارجية للارض قد تكونت بصورة دائمة منذ ٤٠٠٠ مليون سنة .

سادسا : ان اقدم اثر للحياة ظهر على الارض منذ ٣٠٠٠ مليون سنة .

سابعا : ان الحياة ظهرت بصورة مزدهرة منذ ٦٠٠ مليون سنة ، «بينما ظهر الانسان على سطح الارض منذ مليون سنة» ويقول الدكتور زغلول : «وبذلك استطاع الانسان الاجابة على ذلك السؤال المحير : منذ متى كانت الارض ، اجابة مدعمة بالاستنتاجات المنطقية المجردة عن

ومما يدلنا أيضا على أن الكون قد خلق بما فيه من عوالم متعددة بالتدريج وليس دفعة واحدة قوله تعالى : «الحمد لله رب العالمين» «سورة الفاتحة ، آية ٢» .

ويبين لنا شارح العقيدة الطحاوية أن من بين المعانى التى تتضمنها كلمة «رب» «التربية ، وهى تبليغ الشىء كماله بالتدريج»(٩م) .

وهذا هو عين ما يفهم من التطور Evolution فى الخلق ، اى أن الخلق لا يتم دفعة واحدة ، وانما على مراحل ، من الادنى الى الاعلى ، أو من الاقل كمالا الى الاكثر كمالا . ولعل هذا المعنى يفهم أيضا من قوله تعالى : «يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير» «سورة فاطر ، آية ١» .

فكرة التطور ذاتها ليست مخالفة للقرآن وانما الذى يخالفه هو القول بأن هذا التطور المشاهد فى الكائنات علويها وسفليها يتم عن طريق المصادفة وليس عن صانع مدبر حكيم .

والظاهر من القرآن الكريم بعد ذلك أن الكون كان وحدة متصلة تكثرت بعد ذلك الموجودات عنها . ولعل هذا المعنى يستفاد من قوله تعالى : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما» «سورة الانبياء ، آية ٣٠» .

أما المادة التى تشكلت منها الاجرام السماوية فتوصف فى القرآن بأنها «دخان» . يقول تعالى : «ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها

الخرافات والحدس والتخمين ، فكانت الارقام السابقة ، والعلم لا يدعى أن هذه الارقام لا تقبل التغيير ، فقد تؤكدها الدراسات المستقبلة أو تحورها ولكن الحقيقة الثابتة هى أن الارض ليست ازلية بل مستحدثة» محاضرات الموسم الثقافى لجامعة الكويت ، ١٩٦٨ — ١٩٦٩ ، المطبعة العصرية بالكويت ، ص ٥٠٣ .

(٩م) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٦٨ .

وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين»(٣٠) .

وأما مادة الكائنات الحية التى منها نشأت وتطورت فهى «الماء» لقوله تعالى «وجعلنا من الماء كل شيء حي» «سورة الانبياء ، آية ٣٠» .

ومما يستوقف الذهن البشرى حقيقة اشـارة القرآن الى أن أصـل الكائنات جميعا واحد ، وهى تتكون من زوجين اثنين ، يقول تعالى : «ومن كل شيء خلقنا زوجين» «سورة الذاريات ، آية ٤٩» ، ويقول تعـالى : «سبحان الذى خلق الازواج كلها ممـا تنبت الارض ومن أنفسهم وممـا لا يعلمون» «سورة يس ، آية ٣٦» .

وقد يطمئن عقل الانسان الى معانى مثل هذه الآيات بعد أن اكتشف العلم الحديث وحدة التركيب الذرى للـكائنات على اختلافها ، وأن الذرة الواحدة تتكون من الكترون وبروتون .

وقد صور لنا الفيلسوف المعاصر برتراندرسل العالم الطبيعى بعـد اكتشاف اينشتين لنظريته فى النسبية(٣١) قائلا : «درسنا العالم الطبيعي فوجدنا أن المادة عند العلم الحديث قد فقدت صلابتها وعنصريتها اذ حللها

---

(٣٠) سورة فصلت ، آية ١١ ، ومن الافتراضات العلمية الآن انه فى أول تاريخ مجرتنا كانت هنـاك سـحابة من غبار ذى تركيب كونى يشبه السديم ، واخذت واحدة من سحابات عـديدة تتكثف على هيئة نجوم تشبه الشمس بينما دار حولها ترص من غبار وغاز سرعان ما تكسر الى دوامات ذوات حجوم وترتيب مختلف فى داخل أى منطقة نصف قطرية يزداد حجمها كلما بعدت عن الشمس وبالتحام هـذه الدوامات عند التقائهـا أصبحت كتلا منفصلة من الغاز على أبعاد نصف قطرية من الشمس . وقد أطلق العلماء على هذه الكتل المنفصلة اسم الكواكب الابتدائية .

«انظر الدكتور زغلول ، محاولات الانسـان لتقـدير عمر الارض ، محاضرات الموسم الثقـافى ١٩٦٨ — ١٩٦٩ ، لجامعـة الـكويت ، ص ٥٠٢» .

(٣١) موجز الفلسفة ، ترجمة الاسـتاذ الدكتور زكى نجيب محمود ، بعنـوان «الفلسـفة بنظرة علميـة» مـكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٠ ، ص ٢٥٨ .

العلماء الى مجموعات ذرية ، كل مجموعة منها تنحل الى ذرات ، وكل ذر
تعود بدورها فتنحل الى كهارب موجبة وكهارب سالبة» .

ولعل من الآيات القرآنية التى اتضح معناها على ضـــوء ما وصل
اليه الفيزياء المعاصرة من هذه النتائج ، قول الله تعالى : «وترى الجبـــ
تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى اتقن كل شيء» «سو
النمل ، آية ٨٨» .

فالجبال وما اليها من الاجسام المادية مدركة لنا على انها ثابتة صلبة
وليس الامر كذلك ، فهى عبـــارة عن عـــدد هائل من الذرات المنطوية عـ
كهارب موجبة واخرى سالبة ، مردها الى اشعاعات فهى لذلك أشبه شـ
بالسحاب من حيث أنه عارض ومتخلخل . يقول برتراند رسـبل «ثم مـ
العلماء فى التحليل فحللوا هذه الكهارب نفسها «التى تتـسكون منها الذر
الى اشـــعاعات ..» وللفيزياء النظرية جانب آخر هو نظـــرية النسبية
وهى نظرية ذات نتائج فلسفية هامة ، منها تحويل العـــالم الطبيعى ا
متصل من الحوادث ذى اربعة ابعاد بعد أن كان سلسلة من حالات ذوا
ثلاثة ابعاد لعالم مؤلف من قطع من المادة لها صلابة وثبات» ، ثم هو يقـ
بعد ذلك : «وليس فى علم الفيزياء ما يبرهن على أن الخصائص الذاتيـ
للعالم الطبيعى تختلف عن خصائص العالم العقلى !»(م٣) .

ويبين عالم الطبيعة ادوين فاست كيف ان النظر فى المـــادة التى مـ
نشأ الكون نظرة علمية تحليلية يؤدى بنا فى النهـــاية الى الايمـــان بوجـ
الله قائلا :

«وعندما تحاول العلوم أن تفسر لنا منشأ الكون تجدها تبين لنا
ضوء ما لدينا من المعلومات عن الطبيعة النووية كيف تتفـــاعل الجزيئـــ
الاساسية لكى تكون لنا جميع العنـــاصر المعروفة فجميع العنـــاصر ا

(م٣) انظر موجز الفلسفة ص ٢٥٨ ، ٢٦١ ــ ٢٦٢ .

يتألف منها هذا الكون تبدأ ببروتونات لها خواص معينة وقوة جاذبة تجعلها تنضم بعضها الى بعض» .

«اما كيف نشأت هذه البروتونات ذاتها ، ولماذا كان لها هذه الصفات بالذات ، فان ذلك ما لم تستطع أن تقدم له العلوم شرحا أو بيانا» .

«ومهما بالغنا فى تحليل الاشياء وردها الى أصولها الاولى فلابد أن نصل فى نهاية المطاف الى ضرورة وجود قوانين طبيعية تخضع لها ذرات هذا الكون ، ويعد ذلك فى ذاته دليـلا على وجود اله قادر مدبر هو الذى قدر لكل ظاهرة من ظواهر هذا الكون أن تسير فى طريقها المرسوم(٣٣) .. وقد خلق الله الالكترونات والنيوترونات وجعل لها خواصها المعينة ، فرسم لها بذلك سلوكها وأقدارها»(٣٤) .

الكون اذن لا حقيقة له الا من حيث ما اثبت الله له من الوجود بتجميع عناصره على النحو الذى وضحه لنا العلم الحديث ، وهى عنـاصر تبـدأ ببروتونات لها خواص معينة وقوة جاذبة تجعلها ينضم بعضها الى البعض الاخر . ومهما بدت موجودات هـذا الكون ثابته صلبة فى ادراكنا نحن ، فانها فى حقيقتها ليست سوى ذرات تعـود بدورها فتنحل الى اشعاعات فليس ثمة حقيقة الا موجد الكون وما عـداه من الكائنـات هو أشبه شىء بوهم عارض كما يقول بعض صوفية الاسلام .

والله اذن هو العلة الممسكة بالعالم ، والحافظة عليه وجوده ولو لم يكن ذلك لتلاشى ، وهذا هو معنى قوله تعالى : «إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا» (سورة فاطر ، آية ٥١) .

وقد اشار بعض مفكرى الاسلام الى معنى كون الله حافظا للعالم ، أو خالقا له باستمرار ، فى شىء من التفصيل :

---

(٣٣) هذا هو ما تشير اليه الآية الكريمة : «وخلق كل شىء فقـدره تقديرا» «سورة الفرقان ، آية ٢» .

(٣٤) الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ٩٦ .

يقول ابن حزم الاندلسى ما نصه : «والله تعالى خالق لكل مخلوق فى كل وقت .. قال عز وجل : «ثم انشأناه خلقا آخر» (سورة المؤمنون آية ١٤) ؛ وقال تعالى «خلقا من بعد خلق» (سورة الزمر ، آية ٦) ، فصح ان فى كل حين يحيل الله تعالى أحوال مخلوقاته ، فهو خلق جديد ، والله تعالى يخلق فى كل حين جميع العالم خلقا مستأنفا دون أن يفنيه» (٣٥) .

ويقول الكندى ان «الله هو المبدع الممسك كل ما أبدع ، فلا يخلو شىء من امساكه وقوته الا باد واندثر» (٣٦) .

وكذلك يذهب ابن عطاء الله السكندرى الى القول بأن الله هو العلة التى تمد الموجودات بعد وجودها بالوجود ، وهذا هو ما يسميه بالامداد على نحو ما يتبين من قوله فى «الحكم» : «نعمتان ما خرج موجود عنهما ، ولابد لكل مكون منهما : نعمة الايجاد ونعمة الامداد» (٣٧)

وهو يقول ايضا : «أمد (الله) كل موجود بوجود عطائه ، وحفظ وجوده (أى وجود الله) وجود العالم بامداد بقائه» «(٣٨)» .

وجدير بالذكر أن ما يذهب اليه مفكرو الاسلام الذين ذكرنا فى هذا الصدد متفق مع ما يذهب اليه بعض الفلاسفة المحدثين فى أوروبا ، من القول بالخلق المستمر (Création Continuée) مثل ديكارت

---

(٣٥) الفصل ، جـ ٥ ، ص ٥٥ .

(٣٦) رسائل الكندى ، تحقيق الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة ، الجزء الاول ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ١٦٢ .

(٣٧) شرح الرندى على الحكم ، جـ ١ ، ص ٩١ .

(٣٨) التنوير فى أسقاط التدبير ، القاهرة ١٣٤٥ هـ ، ص ٥٢ .

(39) Descartes : Discours de la methode. œuvres de Descartes, ed, Libraire Joseph Gibert P. 46 Les Principes de la Philosophie pp. 192—193.

«٣٩» ومالبرانشن «٤٠» .

ونعود مرة اخرى الى خلق الله للاشياء فنقول:

ان الله خلق كل شيء في هذا الكون بقدر ، اي بتقدير كمي وزماني وفق ماهية سابقة . وان شئت قلت : حدده واعطاه اوصافه وجعل له رتبة وجودية معينة ، يقول ابن حزم : «ومعنى القدر في اللغة العربية الترتيب والحد الذى ينتهى اليه الشيء ، تقول : قدرت البنـــاء تقديرا اذا رتبتـــه وحـــــددته» .

«قال تعالى : «وقدر فيها اقواتها (سورة فصلت ، آية ١٠) ، بمعنى رتب اقواتها وحددها . وقال تعالى : إنا كل شيء خلقناه بقدر» (ســورة القمر ، آية ٤٩) يريد تعالى ، برتبة وحد . فمعنى قضى وقدر : حكم ورتب ! ومعنى القضاء والقــدر : حكم الله تعالى في شيء بحمــده وذمه ، وبكونه وترتيبه على صفة كذا ، والى وقت كذا» «٤١» .

والآيات التى تشير الى تقدير المخلوقات تقديرا كميا خاضعا للقيـــاس او الحساب كثيرة في القرآن ، وحسبنا ان نشير هنا الى بعضها : «وخلق كل شيء فقدره تقديرا» ، (سورة الفرقان ، آية ٢) .

«والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم» (٤٢) .

«فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم» (سورة الانعام ، آية ٩٦) .

---

(40) Malbranche : Entretiens Métaphysiques, VII, 7ed. Fontana 1, 150.

(٤١) الفصل ، ج ٣ ، ص ٥٢ .

(٤٢) سورة يس ، آية ٣٨ ــ ٣٩ . والمقصود بالعرجون القديم فرع النخل اليابس ، اى ان التمر لا حياة فيه ، وهذا هو ما تأكد بعد الهبوط عليـــه .

«ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرناه فنعم القادرون» (سورة المرسلات ، آية ٢٠ — ٢٣) .

«سبح اسم ربك الاعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى» (سورة الاعلى ، آية ١ — ٣)

«والسماء وضعها ورفع الميزان» (سورة الرحمن ، آية ٧)

« والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون» (سورة الحجر ، آية ١٩) .

ومن الآيات التى تشير أيضا الى تقدير المخلوقات تقديرا زمنيا قوله تعالى :

« إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر (سورة يونس ، آية ٣) .

«هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ماخلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون» (سورة يونس ، آية ٥) .

«وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون» (سورة الحج ، آية ٤٧) .

«يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون» (سورة السجدة ، آية ٥) .

«تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة» (سورة المعارج ، آية ٤) .

وثمة ملاحظة هامة هنا ، وهى ان اختلاف التقدير فى الايام على النحو الذى تشير اليه بعض آيات القرآن . يفهم اذا علمنا ان الزمان هو أمر نسبى ، وهو كما نعلم يقدر بحركة الافلاك فى مجموعتنا الشمسية ، اما خارج نطاق هذه المجموعة فليس ثمة زمان بالمعنى الذى نفهمه نحن على هذه الارض .

هذا عن خلق الله للموجودات بمقدار ، اى تحديدها من ناحية الكم وفى الزمان .

اما عن ماهية كل موجود او طبيعته الخاصة به ، فقد اشار القرآن اليها فى قوله تعالى :

«قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى» (سورة طه ، آية ٥٠). وفى قوله تعالى «لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم» (سورة التين ، آيـة ٤) .

ويتحدث ابن حزم عن ان الله قد جعل لكل موجود طبيعة معينة قائلا : «وكل هذه الطبـائع (التى للموجودات) والعادات مخلوقة . خلقها الله عز وجل . فرتب الطبيعة على انها لا تستحيل ابدا ولا يمكن تبـدلها عنـد كل ذى عقل ، كطبيعة الانسـان بأن يكون ممـكنا له التصرف فى العلوم والصناعات ان لم تعترضه آفة ، وطبيعة الحمير والبغال بأنه غير ممكن منها ذلك ، وكطبيعة البر «أى القمح» ان لا ينبت شعيرا ولا جوزا ، وهكذا كل ما فى العالم» (٤٣) .

وهكذا يمكن القول بحسب الاسلام ان الله قد خلق كل مخلوق وفق ماهية سابقة له . وهذا مخالف لما يذهب اليه اصحاب الفلسفة الوجودية فى العصر الحاضر من القول بأن الوجود سابق على الماهية .

وينبه القرآن الكريم بعد هـذا كله الى ان الكون كله يسـوده نظام محكم لا تفاوت فيه ولا نقص . يقول تعـالى : «الذى خلق سبع سماوات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطـور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خـاسئا وهو حسير» (٤٤) .

والحكمة تقتضى أن الموجـودات فى الكون انما توجـد وفق قوانين او على حد تعبير القرآن لسنن لا تتبدل .

وليس ادل على انتظام امر الكون من انه خاضع لقوانين ثابتة ، يقول تعالى : «افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها

---

(٤٣) الفصل ، جـ ٥ ، ص ١٦ .

(٤٤) سورة الملك ، آية ٣ — ٤ . والفطور هى الشقوق ، والمقصود انك لا ترى اختلالا .

من فروج» (٤٥) .

ولابد لنا من الوقوف عند هذه النقطة لنفصل الكلام فيها ، ليتبين القارىء أن القرآن حين يوجه العقول الى اكتشاف سنن الكائنات انما يدعو دعوة صريحة الى العلم بالمعنى الذى يفهم منه فى عصرنا .

فالقرآن يذكر فى آيات كثيرة ان الله قد خلق المخلوقات على اختلافها بالحق ، وهذا يعنى انها لم تخلق باطلا او عبثا او على أى نحو اتفق يقول تعالى :

«اولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض إلا بالحق وأجل مسمى» (سورة الروم ، آية ٨) .

«وما خلقنا السماوات الأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون» (سورة الدخان ، آية ٣٨ — ٣٩) .

«خلق السماوات والارض بالحق وصوركم فأحسن صوركم واليه المصير» (سورة التغابن ، آية ٣) .

ومعنى كلمة «الحق» الواردة فى مثل هذه الآيات ، ما يوجد بمقتضى الحكمة ، كما يذكر الراغب الأصفهانى فى «مفردات غريب القرآن» (٤٦) ولذلك توصف أفعال الله كلها بأنها حق ، أى أنها تصدر عن الله بمقتضى علمه وحكمته .

معينة (٤٧) ، وإلا لم تكن حكمية ، وهذه القوانين ليست شيئا أكثر من ربط الاسباب بمسبباتها ، والى هذا يشير ابن رشد ، في عبارات تدل على

---

(٤٥) سورة ق ، آية ٦ . والمقصود بقوله تعالى : «مالها من فروج» ليس فيها عيوب أو نقائص .

(٤٦) مفردات غريب القرآن ، مادة : «حق» .

(٤٧) يطلق على الموجودات فى القرآن احيانا وصف الكلمات ، وهى لا تتبدل من حيث قوانينها ، يقول ابن حزم : «لا مبدل لكلماته» ، فصح انه لا تبديل لما رتبه الله مما اجرى عليه خلائقه» ، الفصل ، جـ ١ ، ص ٨٥ » وانظر سورة الانعام ، آية ١١٥ ، وسورة الكهف ، آية ٢٧ .

علمية تفكيره ، قائلا : «الحكمة ليست شيئا أكثر من معرفة اسباب الشيء ، واذا لم تكن للشيء أسباب ضرورية تقتضي وجوده على الصفة التي هو بها ذلك النوع موجود ، فليس ههنا معرفة يختص بها الحكيم الخالق دون غيره ، كما انه لو لم تكن هنا أسباب ضرورية في وجود الامور المصنوعة لم تكن هنالك صناعة أصلا ولا حكمة تنسب الى الصانع دون من ليس بصانع .

«واى حكمة كانت تكون فى الانسان لو كانت جميع افعاله وأعماله يمكن ان تأتى بأى عضو اتفق ، أو بغير عضو ، حتى يكون الابصار مثلا يتأتى بالاذن كما يتأتى بالعين ، والشم بالعين كما يتأتى بالانف» .

«وهذا كله ابطال للحكمة ، وابطال للمعنى الذى سمى به (الله) نفسه حكيما . تعالى وتقدست اسماؤه عن ذلك» (٤٨) .

وعلى ذلك فان «بناء المسبباب على الاسباب هو الذى يدل على أنها (أى الموجودات) صدرت عن علم وحكمه» (٤٩) .

وبشيء يسير من التأمل يدرك الانسان انه لابد ان تكون هناك قوانين معينة للظواهر الكونية ، هى مظهر حكمة الخالق تعالى .

فالذى ينظر الى السماء يرى النجوم والكواكب معلقة فى الفضاء دون أن تستند الى شيء ، يقول تعالى ، «الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها» (سورة الرعد ، آية ٢) ، ومثل هذا التنبيه القرآنى من شأنه أن يدفع الانسان الى التساؤل عن علة وجود الاجرام فى السماء على هذا النحو ، ثم اذا بالانسان يهتدى الى قوانين الجاذبية والحركة والنسبية وما الى ذلك ، فيعرف الاسباب الحقيقية لتلك الظاهرة .

وكذلك المتأمل فى ظاهرة تعاقب الليل والنهار يتساءل عن السر فى

---

(٤٨) الكشف عن مناهج الادلة ، القاهرة ١٣٢٨ هـ ، ص ٤١ .
(٤٩) نفس المرجع ، ص ٨٨ .

تعاقبهما ، فيجيبه القرآن بما يفيد كروية الارض ودورانها المستمر ، فيقول تعالى : «يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل» (سورة الزمر ، آية ٥) .

وليس هذا فهما معاصرا لهذه الآية ، وانما هو فهم قديم توصل اليه علماء المسلمين قديما بفضل القرآن ، وفى ذلك يقول ابن حزم : «ان احدا من ائمة المسلمين المستحقين لاسم الامامة بالعلم رضى الله عنهم لم ينكروا تكوير الارض ، ولا يحفظ لاحد منهم فى دفعه كلمة ، بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها . قال الله عز وجل : «يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل» . وهذا أوضح بيان فى تكوير بعضها على بعض ، مأخوذ من كور العمامة وهو ادارتها» (٥٠) .

ومن الظواهر الطبيعية التى يجمل القرآن الكريم الاشــــارة الى أسبابها بما لا يختلف عما هو معروف من العلم الحديث ، السحاب والمطر والبرق يقول تعالى :

«الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا اصاب به من يشاء من عبادة اذا هم يستبشرون» (٥١) .

«الم تر ان الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار» (سورة النور ، آية ٤٣) .

ان القرآن بمثل هاتين الآيتين يدفعنا الى علمية التفكير المتمثلة فى ربط الظواهر الطبيعية بعللها الحقيقية لا الوهمية ؛ فالسحاب والمطر والبرق ترتبط فى حدوثها بعوامل معينة كحرارة الشمس ومياه البحر وبخار الماء المتصاعد بفعل الحرارة والرياح واحتكاك السحب حين تتجمع .

---

(٥٠) الفصل ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

(٥١) سورة الروم ، آية ٤٨ والودق هو المطر .

هذه أمثلة قليلة مما يزخر به القرآن من آيات تحث عقل المفكر على اكتشاف قوانين الطبيعة التى هى مظهر نظام الكون ، كما أنها فى نفس الوقت دلالات على أن هذا الكون لم يخلق باطلا أو عبثا ، وأن له غاية .

وصدق الله تعالى اذ يقول : «وما خلقنا السماوات والارض باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار» (سورة ص ، آية ٢٧) .

وانظر الى العلم بالكون وقوانينه حينما ينتهى الى الايمان بالله فى صورة رائعة يقدمها لنا سيسل هامان اذ يقول .

«فاذا رفعنا أعيننا نحو السماء فلابد أن يستولى علينا العجب أكثر ، من كثرة ما نشاهده فيها من النجوم والكواكب السابحة فيها ، والتى تتبع نظاما دقيقا لا تحيد عنه قيد أنملة ، مهما مرت بها الليالى ، وتعاقبت عليها الفصول والاعوام والقرون . انها تدور فى افلاكها بنظام يمكننا من التنبؤ بما يحدث من الكسوف والخسوف قبل وقوعه بقرون عديدة .

«فهلا يظن أحد بعد ذلك أن هذه الكواكب والنجوم قد لا تكون أكثر من تجمعات عشوائية من المادة تتخبط على غير هدى فى الفضاء» واذا لم يكن لها نظام ثابت ، ولم تكن تتبع قوانين معينة ، فهل كان من الممكن أن يثق الانسان بها ، ويهتدى بهديها فى خضم البحار السبعة ، وفى الطرق الجوية التى تتبعها الطائرات (٢*) .

«الحق انه من قطرة الماء التى رأيناها تحت المجهر الى تلك النجوم التى شاهدناها خلال المنظار المكبر ، لا يسع الانسان الا ان يمجد ذلك النظام الرائع وتلك الدقة البالغة والقوانين التى تعبر عن تماثل السلوك وتجانسه .

«ولولا ثقة الانسان فى أن هنالك قوانين يمكن كشفها وتحديدها لما

(٢*) هذا هو معنى قوله تعالى : «وعلامات وبالنجم هم يهتدون» ، سورة النحل ، آية ١٦ .

أضاع الناس اعمارهم بحثا عنها فبدون هذا الاعتقاد وتلك الثقة فى نظام الكون يصير البحث عبثا ليس وراءه طائل .

«ولو انه كلما اجريت تجربة اعطت نتيجة مخالفة لسابقتها بسبب توقفها على المصادفة أو عدم وجود قوانين مسيطرة فأى تقدم كان من الممكن أن يحققه الانسان؟ ».

«لابد أن يكون وراء كل ذلك النظام خالق أعلى . فليس مما يقبله العقل أن يكون هناك نظام أو قوانين دون أن يكون وراءها عقل أعلى ومنظم مبدع .

«وكلما وصل الانسان الى قانون جديد فان هذا القانون ينادى قائلا : ان الله هو خالقى وليس الانسان الا مكتشفا!» (٥٣) .

خلاصة القول فيما سبق ان معالم صورة الكون فى الاسلام تتحدد على النحو التالى : —

الكون كله حادث مخلوق ، وكلّ ما فيه من الكائنات له بداية ونهاية والله تعالى هو الذى خلقه بما فيه من عوالم متعددة ومخلوقات نعلم بعضها ولا نعلم عن البعض الآخر شيئا ، وأن الكون لعظم اتساعه غير محصور فى مداركنا ، ولذلك لا يمكن القطع بأنه يتناهى أو لا يتناهى . وكذلك فان الله لم يخلق عوالم الكون دفعة واحدة وانما خلقها على سبيل التدريج أو التطور ، وان الموجودات جميعا فى الكون من أصل واحد . والله هو المسك للكون أو الحافظ عليه وجوده ، ولولا ذلك لتلاشى ، وأن خلقه للموجودات مستمر . وحين خلق الله مخلوقاته فانه خلقها بقدر ، أى بتقدير كمى وزمانى وفق ماهيات سابقة . والكون كله يسوده نظام دقيق محكم اذ ان جميع الموجودات فيه خاضعة لقوانين مطردة ثابتة لا تتبدل ؛ وهذا هو معنى ايجادها بالحق ، أى بمقتضى حكمه معينة .

---

(٥٣) الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ١٤٤ .

علاقة الإنسان بالكون

واذ قد تبينت صورة الكون على هـذا النحـو ننتقل الى البحث عن الانسان من حيث علاقته بالكون : كيف وجد فيه ، وما هى طبيعتـه المميزة له ، وما هى رسالته فى هذه الحياة التى يحياهـا على الارض ، وما معنى تسخير الكون له ، أو ملاءمته لوجوده ، وهل لحياته غاية أبعـد من تلك التى تتحقق على الارض؟ كل أولئك تسـاؤلات نحـاول أن نجيب عليها فيما يلى :

الانسان بحسب ما ورد فى القرآن الكريم هو محور هذا الكون ، وعلى قمة مخلوقاته وموضع التكريم والعناية الالهية فيه ، خلقه الله فى احسن تقويم وجعله فى أكمل صورة . يقول تعالى : «لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم» (سورة التين ، آية ٤) ، ويقول تعالى : «وصـوركم فأحسن صوركم» (سورة غافر ، آية ٦٤) .

اما كيف تم خلق الانسـان ، فهذا مما لا نستطيع الوقوف على حقيقته ، صحيح ان فى القرآن الكريم ما يشير الى قصة خلق آدم ، وكيف علمه الله الاسماء كلها ، وامر الملائكة بالسجود له فسجدوا الا ابليس ، وكيف اخطأ هو وزوجه فأمرهما الله بالهبوط الى الارض ، (سورة البقرة ، آية ٣٠) وما بعدها ، ولكن هذه كلها اشارات الى امور غيبية لا نعرف كنهها وهى ايضا مما يحتمل تأويلات شتى .

وقد اصاب ابن حزم حيث يقول : «فلسنا نعلم ولا أحد من الناس كيفية ذلك (اى بدء الخلق) ، وهـذا نص قوله تعالى : «ما اشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم» (سـورة الكهف ، آيـة ٥١) .. اما ما كان بعـد ابتداء الخلق فمعروف الكيفيات ، قال تعـالى : «وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبـدل لكلماته» (سـورة الانعام ، آية ١١٥) ، فصح انه لا تبديل لما رتبه الله مما اجرى عليه خلائقه» (٥٤) .

---

(٥٤) الفصل ، جـ ١ ، ص ٨٥ .

ولا يعيب الانســان المفكر أبدا أن يقر بعجــز عقله الآن عن ادراك حقيقة ما ، فما اكثر ما لا نعرفه بيقين ، وانما الذى يعيبه حقا هو ان يسارع فينكر ها لمجرد الانكار ، أو يخوض فيه الكلام عنها متأولا بما لا يعرف .

واذا كان العلماء نحددون الآن بدء ظهور الانســان على هذه الارض بما يقرب من مليون سنة ، استنادا الى اقدم الحفريات ، فهذا يدل على ان الإنسان قد جاء خاتمة لسلسلة من المخلوقات أدنى منه سبقته على هــذه الارض ، بل ان الانسان نفسه تطور على هذه الارض مارا بمراحل متتالية حتى الى ما بلغ اليه من كمال ، يقول تعالى :

«هل اتى على الإنســان حين من الدهــر لم يــكن شيئا مذكورا» (سورة الإنسان ، آية ١) .

« ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا . ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا» (ســورة نوح ، آية ١٢ ـــ ١٨) .

ولكن التطور الذى تشير اليه مثل هذه الآيات فى القرآن اشــارات مجملة أنها يتعلق بالانسان من حيث هو كائن مادى ، لا من حيث هو كائن روحى ، فالانسان بالاعتبــار الاول نشــأ على هذه الارض وتطــور ، اما بالاعتبار الثانى فقد كان له وجود روحى ســـــابق فى عالم آخر ـــ وهو ما تشير اليه قصة خلق آدم فى القرآن ـــ وان كنا لا ندرى كيفيات هــذا الوجـــــــود .

يقول تعــالى : «ويســــــألونك عن الروح قل الروح من أمــر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا» (سورة الاسراء ، آية ٨٥) .

اما القول بأن الانسان مادة فقط ، فهو قول ينقضه ما يعرفه الانسان بفطرته ، فهو كائن يعى ذاته ، والمادة لا تعى ذاتها .

واكثر من ذلك هو الكائن الوحيد من بين سائر الكائنات الاخرى الحية القادرة على استخلاص اشد انواع المعرفة تجريدا بعمليات ذهنية فى غاية من التعقيد ، ولا حدود لانطلاقاته فى هذا السبيل .

والانسان حين يعمد الى تأمل ذاته ، او ما يسميه علماء النفس بالاستبطان (Introspection) لا يدرك مادة ، وانما يدرك فكرا .

وبتعبير اكثر دقة يدرك حالات متتابعة من التفكير ، هى ما يطلق على مجموعة الذات المفكرة ، او بتعبير علماء النفس الانا (Ego) ، على اعتبار أن وحدة الظواهر النفسية تستلزم اصلا ان تصدر عنه .

ان استمرار حياة الانسان الوجدانية فى تيار واحد لا انقسام فيه ولا انفصام ، او بعبارات اخرى شعوره من اول عمره الى آخره بحركة فكره المتصلة فى الزمان ، يثبت له أن ذاته المفكرة متميزة عن البدن تماما ، ان كانت هى علة تدبيره وحركته .

ولما كان الانسان يدرك هذا كله من نفسه مباشرة ، فانه غير محتاج فى اثبات صدقه الى دليل من خارج ، فالحدس دائما اقوى من البرهان .

والانسان يدرك من نفسه ايضا بطريق مباشر انه حين يسلك فانما يسلك بمقتضى حوافز معينة وليس عشوائيا ، ولا نستطيع ان نصف كل هذه الدوافع بانها مادية . ولهذا فان مظاهر سلوك الانسان من اشد الامور تعقيدا اذ لا يمكن تفسيرها آليا . ولم ينجح علماء النفس بعد فى اخضاع جميع الظواهر النفسية فى الانسان الى القياس الكمى . وعلى سبيل المثال فان مجال العواطف الانسانية لا يزال الى الآن من اغمض المجالات فى علم النفس .

كل هذا يدلنا على الفارق بين الانسان وبين غيره من الكائنات الحية وغير الحية ، وهو الفارق الذى يكمن فى ان الانسان حين يصدر فى سلوكه فانما يصدر عن ارادة واعية وفكر استدلالى ، والفكر غير خاضع لقوانين المادة ، وهى لا تفسر لنا شيئا من تصوراته المجردة وعملياته المعقدة .

ونحن اذا قلنا ان الانسان كائن ذو طبيعتين ، احداهما تتعلق بعالم المكان والزمان ، والاخرى تتعلق بعالم آخر غير مادى ، فان قولنا هذا ليس يعبر عن فكرة ميتافيزيقية بعيدة عن واقع الانسان كما يحسه هو نفسه مباشرة . فالانسان هو الكائن الوحيد الذى ينزع بشعوره وبعقله نزوعا غريبا الى ما وراء المحسوس ، وهو نزوع يكاد ان يكون فطريا فيه وملازما لطبيعته ، فكيف يمكن اغفال دلالات ذلك؟

ونعود الآن الى ما كنا بصدده ، فنقول ، ان الانسان نشأ وتطور على هذه الارض ، ولكن بعد وجود سباق لا ندرى كنهة فى عالم آخر غير هذا العالم المحسوس .

ومن الآيات القرآنية التى لها دلالة على ما ذكرنا قول الله تعالى :
«واذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين» (سورة الاعراف ، آية ١٧٢) .

ويذكر فخر الدين الرازى عند تفسيره لهذه الآية ان صوفية الاسلام يأخذون فى تفسيرها برأى مؤداه أن الارواح البشرية موجودة قبل الابدان ، وان الاقرار بوجود الاله من لوازم ذواتها وحقائقها (٥٥) .

والواقع أن صوفية الاسلام لم يكونوا هم وحدهم الذين فهموا تلك الآية الكريمة على هذا النحو ؛ ولكن يشاركهم فى هذا الفهم ابن حزم على الرغم من أنه من أئمة الظاهرية ، فهو يقول :

«ان الله تعالى قد نص كما ذكرنا أنه أخذ من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم ، وهذا نص جلى على أنه عز وجل خلق انفسنا كلها من عهد آدم عليه السلام ، لان الاجساد حينئذ بلا شك كانت ترابا وماء . وايضا فان

---

(٥٥) مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير ، القاهرة ١٣٢٤ هـ ، ج ٥ ، ص ٣١٢ وما بعدها .

المخاطب انما هو النفس لا الجسد . فصح يقينا أن نفوس كل من يكون من بنى آدم الى يوم القيامة كانت موجودة مخلوقة حين خلق آدم بلا شك . ولم يقل الله عز وجل انه أفنانا بعد ذلك . ونص تعالى على أنه خالق الارض والماء حينئذ بقوله تعالى : «وجعلنا من الماء كل شىء حى» «سورة الانبياء آية ٣٠» ، وقوله تعالى : «خلق السماوات والارض فى ستة أيام ثم استوى على على العرش» «سورة الاعراف ، آية ٥٤» . واخبر عز وجل انه خلقنا من طين ، والطين هو التراب والماء ، وانما خلق تعالى من ثلاثة اجسامنا ، فصح أن عنصر أجسامنا مخلوق منذ أول خلقة تعالى السماوات ، وان أرواحنا ، وهى انفسنا ، مخلوقة منذ أخذ الله تعالى عليها العهد»(٥٦) .

وفى رأينا انه لا يزال وراء النصوص الدينية المتعلقة بخلق الانسان من الاسرار ما لا نعلم

كما أن علم الانسان بنفسه وبإمكاناته الهائلة لا يزال محدودا الى الآن ، وربما استطاع الانسان أن يعرف عن الكون المادى أكثر مما استطاع أن يعرفه عن أسرار نفسه .

مهما يكن من شىء ، فان الله تعالى خلق الانسان ، وشاء أن تكون هذه الارض مستقرا له الى وقت معلوم ، وفى ذلك يقول تعالى : «ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين» «سورة البقرة ، آية ٣٦» .

والانسان فى هذه الدنيا صاحب رسالة فقد استخلفه الله على الارض ليعمرها ويستخرج خيراتها لا ليزهد فيها وينصرف عنها ، وهذا هو معنى الاستخلاف فى قوله تعالى : «انى جاعل فى الارض خليفة» «سورة الانعام ، آية ١٦٥» .

---

(٥٦) الفصل ، ج ٣ ، ص ١٣١ — ١٣٢ .

على ان هذا الاستخلاف لا يخلو من الامتحان ، فقد أراد الله لهذا الانسان أن تعاني نفسه من الصراع بين نوازع الخير والشر فيما هو مستخلف فيه ، وهو صراع تتكمل من خلاله شخصيته ، وترتقي من الناحيتين الروحية والمادية ، فيتهيأ بهذا لحياة أخرى غير هذه الحياة ، والقانون الذى يحكم هذا كله هو : الجزاء على قدر العمل ، يقول تعالى :

«وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم» «سورة الأنعام ، آية ١٦٥» .

«هو الذى جعلكم خلائف فى الارض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا» «سورة فاطر ، آية ٣٩» .

« إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا» «سورة الكهف ، آية ٧» .

«ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون» «سورة يس ، آية ٥٤» .

«يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا اعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» «سورة الزلزلة ، آية ٦ — ٨» .

وكان من مظاهر رحمة الله أن جعل فى الانسان عقلا ليستطيع به ادراك أسرار الكون ومعرفة خالقه ، وترتيب أمور معاشه فى هذه الدنيا على أفضل وجه . وهذا العقل هو الامانة التى يذكر القرآن أن الانسان قد حملها «انظر : سورة الاحزاب ، آية ٧٢» . وبواسطة العقل ايضا يستطيع الانسان ان يميز بين الخير والشر ، والتقوى والفجور ، كما يفهم من قوله تعالى : «ونفس وما سواها .. فألهمها فجورها وتقواها» «سورة الشمس ، آية ٧ — ٨» .

ومن مظاهر رحمة الله بالانسان أيضا ارسال الرسل بالبينات ، لعلمه تعالى بأن شهوات الانسان وأهواءه قد تنحرف بعقله إلى مسالك الشر

وكان أن تتابعت الرسـالات متمايزة المجتمعات الإنسانية فى تطورها الصاعد آخذة بيد البشرية الى أسباب ارتقائها الروحى والمادى حتى كانت الرسالة المحمدية فختمت بها الرسـالات ، وتحققت بهـا الرحمة كاملة ، يقول تعـالى : «وما أرسلناك الا رحمة للعـالمين» «سورة الانبياء ، آية ١٠٧» .

جاء الاسلام لنوع الانسان بالتوحيد الخالص الذى لا تشوبه شائبة ، وتم بلاغ السماء للناس جميعا ، وتأكدت أهمية الانسـان على هذه الارض وكرامته وعزته ، وتحددت صلته بربه ، وبأشباهه من الناس ، على أسس واضحة ، وتركت للناس مصالحهم المرسلة يعـالجونها كلما جـدت وقائع جـديدة فى حيـاتهم وانتهت مرحلة الاعتمـاد على الخوارق فى اثبـات الرسالات بوصـول البشرية الى مرحلة الاعتمـاد على العقل فى معرفة الكون وخالقه .

لهذا كان العقل دعامة أساسية من دعامات الاسلام ، واسـتخدام العلم من اقوى الوسائل الى تحقيق رسالة الانسان على هذه الارض ، وهى أن يعمرها ويستغل خيراتها الى ابعد الحدود .

ونظرة الى تاريخ حضارة الانسـان منذ وجد على هذه الارض الى الآن كفيلة ببيـان الحكمة الالهية من وجود الانسـان ، فالتطور الهائل فى امكانياته يدلنا على أن الله قد اوجد فيه من الاستعدادات ما لم يوجـد فى مخلوق آخر ، ولا زال مستقبل الانسـان يحمل من الامكانيات فى تسخير الطبيعة ما لا نعلم وما قد لا نتصور ، ومن ذا الذى كان فيما مضى يتصـور وصول الانسان الى القمر ؟!

ان الانسـان فى الحقيقة هو قمة الموجودات فى هذا العـالم ، وهو بمثابة مرآة يتجلى فيها الكون كله ، وهو الـكائن الوحيد على هذه الارض القـادر على تعقل ما حوله واعطائه معنى وهـدفا ، وما أعمق المعنى فى قوله تعالى : «وفى أنفسكم افلا تبصرون» «سورة الذاريات ، آية ٢١» .

فليس غريبا أن يكرم الله الانسان لما فيه من هـذه المعانى كلها ، وصدق الله اذ يقول : «ولقـد كرمنـا بنى آدم» «سـورة الاسراء ، آية ٧٠» .

وليس غريبا كذلك أن يكون الانسان موضع العناية الالهية ليتمكن من استمرار الوجود على هذه الارض وليحقق رسالته .

والحقيقة أن من أقوى الدلائل على أن الانسان محور هذا الكون هو تلك الملاءمة التى يدركها بيسر تأمل بينه وبين العالم الذى يعيش فيه :

فالغـلاف الجوى المحيط بالارض يحميها من الشهب والنيـازك ، والهواء المحيط بالانسان ملائم لتنفسه ووظائف حياته ، ولا كذلك الطبقات العليا من الجو(٥٧) ، ووجود الجبال يحفظ توازن الارض ، وتعاقب الليل والنهار فيه ملاءمة لنوم الانســان ويقظته ، ونزول المطر من السماء هو بمقـدار ما ينبت به النبات وينتفع به الانسان والحيوان ، وعدم اختلاط مياه البحار بمياه الانهار العذبة هو من أجل بقاء النبات والحيوان والانسان ، ووجود الاشجار فيه من الفوائد للانسان ما لا يحصى ، وكذلك المعـادن فى باطن الارض . وهكذا فان كل ما نشاهده من هذا العالم المرئى انما يوحى الينا بأنه لحياة ملائم الانسان من كل الوجوه ، يقول تعالى :

«أانتم أشد خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . واغطش ليلها واخرج ضـحاها . والأرض بعـد ذلك دحاها . أخرج منهـا ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعا لكم ولأنعامكم» «سورة النـازعات ، آية ٢٧ — ٣٣» .

---

(٥٧) اشار القرآن الى عدم ملاءمة الطبقات العليا لتنفس الانســان فى قوله تعالى :

«ومن يرد أن يضله يجعل صـدره ضـيقا حرجا كأنمـا يصعد فى السماء» «سـورة الانعـام ، آية ١٢٥» ، وهو أمر لم يكتشفه العلم الا حديثـا .

«افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنينـاها وزيناها وما لهـا من فروج . والأرض مددناها والقينا فيهـا رواسى وأنبتنا فيهـا من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعبـاد واحيينا بلدة ميتا كذلك الخروج» «سورة ق ، آية ٦ — ١١» .

«الم نجعـل الارض مهادا . والجبـال أوتادا . وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسـا . وجعلنا النهار معاشـا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبـا ونباتا . وجنـات الفافا» «سـورة النبأ ، آية ٧ — ١٦» .

«وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وانهارا ومن كل الثمرات جعـل فيهـا زوجين اثنين يغشى الليـل النهـار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنـات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون» «سورة الرعد ، آية ٣ — ٤» .

«وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعـل بينهما برزخا وحجرا محجورا» «سورة الفرقان ، آية ٥٣» .

«وانزلنا من السماء ماء بقدر فاسـكناه فى الأرض و إنا على ذهاب به لقادرون فأنشأنا لكم به جنات من نخيل واعناب لكم فيهـا فواكه كثيرة ومنها تأكلون» «سورة المؤمنون ، آية ١٨ — ١٩» .

«افرايتم المـاء الذى تشربون . أانتم أنزلتمـوه من المزن أم نحن المنزلون . ولو شاء جعلناه أجاجا فلولا تشـكرون . أفرايتم النـار التى تورون . أانتم انشأتم شجرتهـا أم نحن المنشئون . نحن جعلنـاها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسـم ربك العظيم» «سـورة الواقعـة ، آية ٦٨ — ٧٤» .

ان هذه الموافقة بين العالم والانسان ، والتى تشير اليها هذه الآيات القرآنية ، وكثير غيرها فى القرآن الكريم ، تظهرنا أيضا على أن العالم لم ينشأ اتفاقا كما يقول الماديون . وقد عبر ابن رشد عن هذا المعنى الاخير قائلا :

«كما أن الانسان اذا نظر الى شيء محسوس فرآه قد وضع بشكل ما ، وقدر ما ، ووضع ما ، موافق فى جميع ذلك للمنفعة الموجودة فى ذلك الشيء المحسوس ، والغاية المطلوبة منه ، حتى يعترف انه لو وجد بغير ذلك الشكل ، أو بغير ذلك الوضع ، أو بغير ذلك القدر ، لم توجد فيه تلك المنفعة ، وانه ليس يمكن أن تكون موافقة اجتماع تلك الاشياء لوجود تلك المنفعة بالاتفاق كذلك الامر فى العالم كله ، فانه اذا نظر الانسان الى ما فيه من الشمس والقمر وسائر الكواكب التى هى سبب الازمنة الاربعة وسبب الليل والنهار ، وسبب الامطار والمياه والرياح ، وسبب عمارة أجزاء الارض ، ووجود الناس وسائر الكائنات من الحيوانات والنبات ، وكون الارض موافقة لسكنى الناس فيها ، وسائر الحيوانات البرية ، وكذلك الماء موافقا للحيوانات المائية ، والهواء للحيوانات الطائرة ، وانه لو اختل شيء من هذه الخلقة والبنية لاختل وجود المخلوقات التى ههنا ، علم على القطع انه ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة التى فى جميع أجزاء العالم للانسان والحيوان والنبات بالاتفاق ، بل ذلك عن قاصد قصده ، ومريد أراده ، وهو الله عز وجل ، وعلم على القطع أن العالم مصنوع»(٥٨)

ان نظرة ابن رشد الى ما فى الكون من نظام يدل على الغائية على هذا النحو يدلك على علمية تفكيره . ولو عاش ابن رشد فى عصرنا لعلم من أسرار الموجودات فى الكون ، ومن موافقتها لوجود الانسان ما لم يكن ليخطر له على بال ، ولتقوى دليله فى العناية بأكثر مما هو عليه .

---

(٥٨) الكشف عن مناهج الادلة ، ص ٨١ — ٨٢ .

ومن الطريف أن يعبر أحد العلماء المعاصرين ، هو فنيل سوارتزن. درونير ، عن نفس دليل ابن رشد الذى مر بك ، ولكن بلغة عصرنا ، فيقول :

«كيف نفسر ذلك النظام والابداع الذى يسود هذا الكون ؟ هنالك حلان ، فاما أن يكون هذا النظام قد حدث بمحض المصادفة ، وهو ما لا يتفق مع المنطق أو الخبرة وما لا يتفق فى نفس الوقت مع قوانين الديناميكا الحرارية التى يأخذ بها الحديثون من رجال العلوم

«واما ان يكون هذا النظام قد وضع بعد تفكير وتدبير ، وهو الرأى الذى يقبله العقل والمنطق

«وهكذا نرى العلاقة بين النبات والتربة تشير الى حكمة الخالق وتدل على بديع تدبيره

«وانا واثق أن الاخذ بهذا الرأى سوف يثير انتقاد المعارضين لهذا الاتجاه ممن لا يؤمنون بوجود الحكمة أو الغرض وراء ظواهر الطبيعة وقوانينها . ومعظم هؤلاء ممن يأخذون بالتفسيرات الميكانيكية ، ويظنون ان النظريات التى يصلون اليها فى تفسير ظواهر الكون تمثل الحقيقة بعينها .

«ولكن هنالك من المسوغات ما يدعونا الى الاعتقاد أن ما وصلنا اليه من التفسيرات والنظريات العلمية ليس الا تفسيرات مؤقتة ، وليست لها صفة الاطلاق أو الثبات .

«فاذا سلمنا بهذا الرأى تضاءل خطر المعارض فى غرضية الكون او وجود غاية منه ، فمما لا شك فيه أن هنالك حكمة وتصميما وراء كل شىء ، سواء فى السماء التى فوقنا أو الارض التى من تحتنا .

«ان انكار وجود المصمم والمبدع الاعظم يشبه فى تجافيه مع العقل والمنطق ما يحدث عندما يبصر الانسان حقلا رائعا رائعا يموج بنباتات القمح

الصفراء الجميلة ، ثم ينكر فى نفس الوقت وجود الفلاح الذى زرعه والذى يسكن فى البيت الذى يقوم بجوار الحقل!!» (٥٩) .

وهكذا تبدو الغـائية فى الكون وفى الانســان فى أجلى مظاهرها امام العقل العلمى المنصف الذى عـرف حـدوده وتخلى عن غـروره بامكانيـاته .

وما أجل عبارة اينشتين : «ان الشخص الذى يعتبر حياته وحيـاة غيره من المخلوقات عديمة المعنى ليس تعيسا فحسب ، ولكنه غير مؤهل للحيـاة» (٦٠) .

واذا كانت حياة الانســان على الارض قصيرة للغاية الا انهـا عظيمة الانجازات . فهل ينتهى كل هذا فجاة ويضيع كفاح الانسان كله على هذه الارض؟ وهل يستوى من بذل جهوده لخدمة الانسانية وتعمير الارض مع من افسـد فيها؟ وهل يستوى العـالم والجـاهل والمحسن والمسىء؟

لو كان الامر كذلك ، اذن تكون حياة الانسان على الارض عبثـا لا معنى له ، وضياعا لاحد له!

لقد علم الله حين خلق الانســان أنه قد يحتجب بشهواته واهوائه من رؤية الحقيقـة فيقع فى وهم كوهم الدهـرية حين قالوا : «ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر» (سـورة الجـاثية ، آيـة ٢٤) .

ومن هنا بين الله تعالى للانسان ان ثمة وراء حيـاته هذه حيـاة أخرى سيحاسب فيها على اعماله ، ان خيرا فخير وان شرا فشر ، لا يستوى فيها العالم والجاهل ، ولا المؤمن والفاسق ، ولا الطيب والخبيث .

---

(٥٩) الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ١٥٤ .
(٦٠) الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ١٥٤ .

«قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» (سورة الزمر ، آيــة ٩) .

«أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون» (ســورة السجدة ، آيــة ١٨) .

«قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو اعجبك كثرة الخبيث» (ســورة المائدة ، آية ١٠٠) .

وهذا هو العدل الذى يطمئن اليه قلب الانسان ويجعل لحيــاته معنى .

ان الايمان بحياة اخرى يدفع الانســـان ايضـــا الى العمل الصالح النافع لان هذا هو الطريق المؤكد الى السعادة .

لقد كتب عالم النفس وليم جيمس مقالا عنوانه (٦١) : «هل للحياة قيمة» قال فيه ان الحياة تستحق ان نحياها اذا اعتقدنا بأن هذا العالم ليس الا جزءا من الوجود ، وانه يوجد الى جوار عالمنا المحســوس قوى روحية خالدة ، وتوجد هذه القوى فى عالم غير مرئى .

ان اعتقادنا فى هـــذا العالم غير المنظور هو مصدر اعتقادنا بأن عالمنا المنظور خير للانســـان . ومعنى الخيرية ملاءمة عالمنا لحيـــاة خلقية ودينية ناجحة . ان الاعتقاد فى العالم غير المنظور يعطينا مجالا جديدا وقوى جديدة نستعين بها حين نفقد معركة هذه الحياة ونصــاب بالعجز واليأس .. اننــا حينئذ نشعر بالامل والسعادة حينما نرتمى فى أحضــان ذلك العالم الفسيح .

لقد عبر وليم جيمس عن واقع الانسان حين جعل سعادته مرتبطـــة بايمانه بوجود عالم غيبى ، وهى سعادة لا يمكن أن يعرفهـــا حق المعرفة الا من عانى تجربة دينية حقيقية لا شكلية . ولا كذلك الانســـان الملحد

---

(٦١) محمود زيدان : وليم جيمس ، دار المعارف بالقاهرة ، ص ١٥٦ .

فهو لا سبيل له الى تصور سعادة كهذه ، لانه اذا تفكر في مصيره يجد نفســه عاجزا بإزاء الموت الذى يضــع نهــاية اخيرة لوجــوده ، والذى لا مفر له منه في نفس الوقت . وهذا يدفعه الى انواع من التحــديات العنيفة التي يحاول أن يؤكد بها ذاته . ومن بين صــور هــذه التحديات السعي الى هدم ما تعارف عليه المجتمع من قيم انسانية ، واقبال لا حد له على ملذات الحياة دون مبالاة بالغير ، وبطرق مشروعة وغير مشروعة . وهذا يفسر لنا لماذا يقترن الالحاد بالانانية المفرطة والحقــد والحســد والضغينة وما الى ذلك من شرور اخلاقية . وهذا امر طبيعي فما الذى يمكن ان يخشاه الملحد اذا كان يعتقــد انه لا قيم تلزمه ، ولا بعث ولا حساب ، ولا ثواب ولا عقاب» .

ومن اطرف ما نجده في الفكر الاسلامي ردا على الملحدين المنكرين للبعث ما يورده الامام الغزالي (٦١) من محاورة بين الامام على رضى الله عنه واحد الملحدين ، قائلا :

«قال على كرم الله وجهــــه لبعض الملحــــدين : ان كان ما قلته (من انه لا بعث ولا حساب) حقا ، فقد تخلصت وتخلصنا .

«وان كان ما قلناه (من وجود البعث والحساب) حقا فقد تخلصنا وهلكت» .

ويعقب الامام الغزالي على هذا قائلا : وما قال (الامام على) هذا عن شك منه في الآخرة ، ولكنه كلم الملحد على قدر عقله !» .

ويعبر الامام الغزالي عن هذه الفكرة ذاتها قائلا : «ليس في العقلاء الا من صدق باليوم الآخر واثبت ثوابا وعقابا .. فان صدق اولئك العقلاء في امر الآخــرة ، وكذب هو ، فانه يبقى في عــذاب ابدى . وان كذبوا هم وصدق هو فلن يفوته الا بعض شهواته الدنيا الفانية» (٦٢)

---

(٦١) انظر احياء علوم الدين ، جـ ٣ ، ص ٣٢٦ وما بعدها .

(٦٢) هذه الفكرة هي عين تلك التي عبر عنها بعد الغزالي بقرون الفيلسوف الفرنسي باسكال وتعرف عنده بفكرة الرهان ، وذلك في كتابه «الخواطـــر» .

ومن ثم فان ما هو اكثر ضمانا بالنسبة للانسان ان يعتقد بالبعث اذا نظر الى مصيره نظرة عقلية واعية :

ولذلك يبين القرآن لنا ان حياة الانسان مع انكار البعث تكون عبثا لا معنى له ، ولابد من وجود حياة اخرى وراء هذه الحياة اكمل وابقى يلقى فيها الانسان الجزاء على ما قدم من اعمال ، فحياتنا هذه الدنيوية ليست غاية فى ذاتها ، وانما هى وسيلة لغاية ابعد . يقول تعالى :

«افحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون» (سورة المؤمنون آيـــة ١١٥) .

«ايحسب الانسان ان يترك سدى» (سورة القيامة ، آية ٣٦) .

يا قوم انما هـــذه الحيـــاة الدنيا متاع وأن الآخرة هى دار القرار« (سورة غافر ، آية ٣٩) .

«وما هذه الحياة الا لهو ولعب وان الدار الاخرة لهى الحيـــوان لو كانوا يعلمون» (سورة العنكبوت ، آية ٦٤) .

ان الانسان اذا لم ير لحياته معنى أو غاية وقع حتما فى التشـــاؤم الشديد ، وتحلل من كل القيم ، وتخلى عن انسانيته أو المعنى الذى كرمه الله من اجله ، وأصبح لا يعقل شيئا مما حوله ، ولا يبدو له أى أمر من أمور حياته معقولا (٦٤) .

---

(٦٤) هذا ما تشير اليه مثلا مسرحيات الكاتب المسرحى المعاصر الذى حاز شهرة كبيرة فى أوروبا صمويل بيكيت (١٩٠٦ —) وهو يركز فى مسرحياته على ان حياة الانسان لا معنى لها ولا تبدو معقولة . ومن هنا عرف مسرحه بالمسرح اللامعقول . وهذا النوع من الكتاب يعكس لنا الى اى حد تعـــانى الحضـــارة الاوروبية من ازمة قيم شـــديدة قـــد تعجل بانهيارها .

لقد نظرت بعض الفلسفات المعاصرة كوجودية سارتر الى الانسان على انه كائن حائر ، وانه وجود يحمل العـــدم فى صميمه . بل ان وجود الانســان عند ســارتر مرادف للقلق الى الحـــــد الذى يجعله يقول : «نحن قلق» (٦٥) . (Nous sommes angoisse)

والانســـــان كما يقول ســــارتر محكوم عليه فى كل لحظة أن يخترع الانسان ، فما الانسان الا ما يصنع نفسه ، وما يريد لنفسه ، وما يتصور نفسه بعد الوجود . انه هو وحده خالق قيمه ومعاييره ، يقول ســـــارتر «ويترتب على ذلك أن حريتى هى الاســاس الوحيد للقيم ، وليس ثمة شيء مطلقا يمكنه أن يلزمنى باصطناع هذه القيمة أو تلك» (٦٦) .

ان الحرية عند سارتر ليست سوى ارادتنا واهوائنا (٦٧) ، وحياتنا لا شيء غير العبث والضياع والانسان عاطفة لا فائدة منها . (٦٨)

وعلى هذا النحو تتصور بعض الفلسفات المعاصرة حقيقة الانسان فتسلبه كل معنى يمكن ان يكرم من اجله .

وسيظل انسان العصر فى هوة الضياع اذا لم يتجاوز القلق الى الايمان ، وستزداد مشكلاته حدة اذا ظل يمارس حرية كتلك التى يدعو اليها سارتر ، وهى حرية من شانها ان تؤدى به الى التردى فى الهوة السحيقة التى يريد سارتر أن يؤول اليها كل وجود انســـــانى ، وهى هوة العــــــــدم .

وحين يركز فلاسفة هـــــذا العصر اهتمـــامهم على ما يســـمونه «مأساة الانسان» فهم ينطلقون من الالحاد . والذى ينطلق من الالحـــاد «كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها» (سورة الانعام ، آية ١٢٠) .

«ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور» (سورة النور ، آية ٤٠) .

ان كثيرا من فلسفات العصر اذ تنتهى الى العـــــدمية (Nihilism) لا تمثل الا خواء فكريا كفيلا بالقضـــاء على كل ما هو عظيم من انجـــازات الانســــان .

---

65 L'être et le néant, P. 81
66 Ibid, P. 78
67 Ibid P. 520
68 Ibid, P. 708

آداب الانسان فى علاقته بالكون

وإذا كان ثمة فى عصرنا هذا فلسفات عدمية لا ترى لحياة الانسان معنى ، فانه توجد فيه ايضا فلسفات اخرى تصطبغ فى ظـاهرها بصبغة العلم ولا ترى فى الوجود الا المادة ، وتذهب الى أن العـالم المادى الذى ندركه بحواسنا هو الحقيقة الوحيدة ، وان المادة ليست من نتاج العقل بل ان العقل ما هو الا اسمى نتاج للمادة .

ومثل هـذه الفلسفات الاخيرة انما تولد فى الانسان غرورا لا حـد له بنفسـه وبالعلم وانجازاته . وما نراه الان فى عالمنـا المعـاصر من استخدام العلم والتكنولوجيا فى اثارة الحروب والتدمير ، انما هو مظهر من مظاهر غرور الانسان المعاصر بالقوة المادية وحدها وابتعاده عن القيم الانسانية التى يمكن أن تحد من شرور تلك الحروب وويلاتها .

ولا يمكن لانسان العصر ان يستقر نفسيا ويأخـذ وجهته الصحيحة نحو انجاز رسالته على الارض الا اذا عرف حدوده مع خالق هذا الكون ومدبره ، ذلك أن الكون كله شـأن من شئون الله تعـالى : «ولله مافى السموات وما فى الارض والى الله ترجع الامور» (سـورة آل عمران ، آية ١٠٩) . فهو تعالى خالق الكون بما فيه الانسان ، وهو الذى ركب العقل فى الانسان ليعمر به الارض لا ليدمرها ، وليعرف به خالقه لا ليلحـد ويحاول ان تضع الانسان فى اطار الكون كله وقوانينه الحتمية — لا فى اطار قدرته الخاصة المحدودة — لترى ان ليس للانسان قدرة على توجيه مجرى الحوادث الكونية وفق مشيئته ، لان هذا من شأن خالق الاشياء جميعا ومدبرها وهو الله . وتأمل بعد ذلك عمق المعنى فيما ورد فى القرآن الكريم على لسان ابراهيم ردا على أحـد المنكرين لوجود الله عن طريق تعريفه بعجزه فى نطاق ذلك الاطار الكونى الذى اشرنا اليه .

«الم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه ان آتـاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال انا أحيى وأميت قال ابراهم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بهـا من المغـرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين» (سورة البقرة ، آية ٢٥٨) .

ومن الطبيعي اذا كان الانسان عاجزا بالنسبة لما يجرى فى الكون ان يكون عاجزا بالنسبة لخالق الكون ، يقول تعالى منبها افراد الانسان : «وما أنتم بمعجزين فى الارض ولا فى السماء» (سورة العنكبوت ، آيـة ٢٢) .

ولعل معنى هذه الآية لم يتضح تماما الا بعـد نجـاح الانسان فى الهبوط على سطح القمر ، وربما تساءل الانسان قبل ذلك عن معنى قوله تعالى : « ولا فى السماء» اذ ما شأن الانسان بالسماء؟ وكيف يكون غير معجز لله فيها ، وهو كائن من شأنه ان يكون دائما على الارض؟

ومن اطرف ما وقفت عليه فى تفسير هـذه الآية عبـارات للامام فخر الدين الرازى يوضح فيها ان الانسان ، لو استطاع ان يصل يوما ما الى السماء ، وهو جائز فانه لن يكون معجزا لله فى هذه الحـالة أيضا ، فلم يطرح من ذهنه امكانية وصول الانسان الى الفضاء الخارجى بما فيه من اجرام ، وقد كان ذلك فى عصره ضربا من ضروب الخيال ، مع أنه اصبح فى عصرنا حقيقة واقعة . يقول الرازى ما نصـه : «ما انتم بمعجزين فى الارض ولا فى السماء «يعنى بالهرب أو الثبـات» أى لا تخـرجون من قبضـة قدرة الله ، فلا اعجاز لا بالهروب ولا بالثبات» .. وقدم (تعـالى) الارض على السماء لان هربهم الممكن فى الارض ، ثم ان فرضنا لهم قدرة غير ذلك ، فيكون لهم صعود فى السماء» (٦٩) .

ان تلك الآية ، وكثير غيرها فى القرآن انما تنبه الانسان الى خلق التواضع ، فمهما تقدم العلم ، ومهما سيطر الانســان على بعض جوانب الطبيعة ، فلا ينبغى أن يغتر بما وصل اليه ، وانما عليه ان يتذكر دائمـا ان ثمـة قوة أكبر من قوته وهى قوة الخالق . وان الكون أوسع من أن يحيط به عقله المحدود .

لقد سأل صحفى امريكى يدعى «فيرك» العـالم المشهور أينشتين قبيل وفاته (٧٠) عن موضوع الايمان بالله فرد عليه اينشتين قائلا :

---

(٦٩) انظر التفسير الكبير ، فى تفسيره للاية ٢٢ من سـورة العنـكبوت .

(٧٠) أوردنا نص هذا الحوار وعلقنا عليه فى مجموعة بحوث لنـا نشرتها وزارة الاوقاف بالجمهورية العربية المتحـدة بعنوان «محـاضرات فى علوم القرآن الكريم والعقيدة والاخلاق والتصوف والفلسفة» القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٣ — ٢٤ . وانظر أيضا كتاب الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا عن اينشتين ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ١٤١ وما بعدها .

اما انا فلست ملحدا ، ولا ادرى ما اذا كان يصح فى القول بأنى من انصار مذهب وحدة الوجود ، فالمسألة أوسع نطاقا من عقولنا المحدودة (لاحظ دلالة اعتراف اينشتين هنا بأن العقل البشرى محدود مع ان عقليته تعد اكبر عقلية علمية فى القرن العشرين) .

فعاد فيرك ليقول له : ان الرجل الذى يكتشف أن الزمان والمكان منحنيان ، ويحبس الطاقة فى معادلة واحدة جدير به الا يهوله الوقوف فى وجه غير المحدود .

ويرد عليه اينشتين قائلا : اسمح لى ان أجيب بأن اضرب مثلا . ان العقل البشرى مهما بلغ من عظم التدريب وسمو التفكير عاجز عن الاحاطة بالكون . فنحن أشبه الاشياء بطفل دخل مكتبة كبيرة ارتفعت كتبها حتى السقف فغطت جدرانها ، وهى مكتوبة بلغات كثيرة . فالطفل يعلم انه لابد ان يكون هناك شخص قد كتب تلك الكتب ، ولكنه لا يعرف من كتبها ، ولا كيف كانت كتابته لها ، وهو لا يفهم اللغات التى قد كتبت بها .

ثم ان الطفل يلاحظ ان هناك طريقة معينة فى ترتيب الكتب ونظاما خفيا لا يدركه هو ، ولكنه يعلم بوجوده علما مبهما ، وهذا على ما أرى هو موقف العقل الانسانى من الله مهما بلغ ذلك العقل من السمو والعظمة والتثقيف العالى .

وعاد الصحفى الامريكى ليسأله مرة اخرى :

اليس فى وسع احد ، حتى اصحاب العقول العظيمة ، ان يحل لنا هذا اللغز ؟

فكانت اجابة اينشتين كما يلى :

نرى كونا بديع الترتيب خاضعا لنواميس معينة . ونحن نفهم تلك النواميس فهما يشوبه الابهام ، وان عقولنا المحدودة لا تدرك القوة الخفية التى تهيمن على مجاميع النجوم !

من هذا الحوار ذى المغزى العميق يتبين لك ان أينشتين فى موقفه من مشكلة الكون وخالقه لم يخرج عن الادب الذى رسمه لنا القرآن الكريم فالقرآن قد حثنا على النظر فى الكون وقوانينــه لكى نعرف الله بآثاره وصفاته ولكن مع التواضع التام بازاء الخالق تعالى ، لان عقولنا محدودة ولن تستطيع ان تدرك كنهه تعالى . قال تعالى : «لا تدركه الابصـــار وهو يدرك الابصار» (سورة الانعام ، آية ١٠٣) .

ولعلك تدرك ههنا ايضا عمق المعنى فيما حكى عن الجنيد أحـــد كبار ائمة التصوف فى الاســـلام ، قال : «اشرف كلمة فى التوحيـــد قول أبى بكر (الصـــديق) : سبحان من لم يجعل للخلق طريقا الى معرفته الا العجز عن معرفته» (٧١) .

ان الانسان اذا استطاع ان يجمع بين العلم بالكون والتصوف من حيث هو قيم اخلاقية رفيعة ونزعة روحية مثـــالية تهدف دائما الى النفاذ الى الحقيقة ، فانه يصل الى ذروة الكمال .

والتصوف الحقيقى علاج للفرد وللمجتمع ، فهو يجنب الفرد شرورا كثيرة على راسها الغرور بنفســـه وبعلمه وبامكانيـــاته ، وهو فى نفس الوقت يحدث فى المجتمعات التى تسودها فلسفات مادية نوعا من التوازن بين مطالب المادة ومطالب الروح .

لقد بدات مجتمعاتنا ، فى زحمة الحياة المادية تفقد مقومات وجودها الروحى ، واصبحت فى عصر سيادة القوة المـــادية وحدهـــا تتشكك فى القيم الانسـانية الرفيعة ، هل لها وجود ام انها وهم من الاوهام! لقد اصبح الناس فى عصرنا ــ اللهم الا قلة واعية ــ ينظـــرون الى كل شىء على ضوء المادة ويقيسون كل شىء بمقياس الحس .

ويقيننا ان الناس لو انصرفوا قليلا عما شغلتهم به الدنيا الى تدبر

---

(٧١) الطوسى : اللمع ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٧٢ .

ما في الاسلام من المثل الروحية ، ولو آمنوا بان وراء المادة والحس عالما آخر له روعته وجلاله ، وله قيمة ومعاييره لغيروا من حكمهم على الاشياء ولوجدوا الراحة النفسية بعد العنـاء ، ولاقبلوا على حيـاتهم في تفاؤل وابتسام ، ولاندفعوا الى العمل المثمر في همة وثبات .

ان التصوف منهج كامل في الحياة ، والصـوفي المحقق هو الذى لا يرى تعارضا بين حياته التعبدية وحيـاة المجتمع الذي يعيش فيه ، بل هو الذى يستعين بحيـاة التعبد على حيـاة المجتمع وما فيها من مشقة وكفاح ، والتسوف بهذا المعنى «فلسفة ايجـابية» تضفى على حيـاة الانسان معنى ساميا .

لهذا لا ينبغي ان يظن بأن الصوفية قوم سلبيون يصرفون النـاس عن الكون المادي وعلومه الى الاغراق في العبادة والانعزالية عن المجتمع فهذا تصور غير صحيح بالنسبة لصوفية الاسلام ، فالتصوف الاسـلامى يعبر عن قيم الاسلام ، والاسـلام دين جامع بين العمل الدنيوى والعمل الاخروى ، ولا يصرفه الناس عن الاخـذ بأسباب الدنيا وبخيراتها «قل من حرم زينة الله التى اخرج لعبادة والطيبات من الرزق» (سورة الاعراف ، آيـة ٣٢) .

ان نظرة صوفية الاسلام الى الكون والانسان ذات مغزى اخلاقى بعيد ، فهم يريدون ان يبينوا للناس ان الكون مجرد شأن من شئون الله ، ومصيره حتما الى الفناء ، فلا ينبغى على الانسان العاقل ان يتعلق نفسيا بالكون الى حد عبادته ، يقول تعالى :

«كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام» (سـورة الرحمن ، آية ٢٦ — ٢٧) .

وكذلك لا ينبغى على الانسـان ان يغتر بنفسـه وبعلمه ، يقول تعـالى :

«ولا تمش في الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبـال طولا» (سورة الاسراء ، آية ٣٧) .

«وما أوتيتم من العلم الا قليلا» (سورة الاسراء ، آية ٨٥) .

ولابد من تطهير القلب عن اخلاقيـــاته الذميمة ، وعن التعلق بكل الاغيار العدمية (جمع غير ، ويشير بها الصوفية الى كل ما ســوى الله) او الاكوان ، لتشرق فى هــذا القلب المعرفة الحقيقة بالله ، والى ذلك المعنى يشير ابن عطاء الله السكندرى بقوله : «كيف يشرق قلب صــور الاكوان منطبعة فى مرآته؟!»

«أم كيف يرحل الى الله وهو مكبل بشهواته؟ أم كيف يطمع ان يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنــابة غفلاته ؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الاسرار وهو لم يتب من هفواته ؟!» (٧٢) .

لابد اذن من أن يتفكر الانسان فيما يشاهده فى الاكوان من دلالة على وجود الله ، يقول ابن عطاء الله : «الفكرة سير القلب فى ميــادين الاغيـــــار» (٧٣) .

ويوضح لنا ابن عباد الرندى معنى هذه الحكمة قائلا :

«للفكرة التى الزمها العبد وحض عليها هى سير القلب فى ميادين الاغيار فقط ، وهى مخلوقات الله ومصنوعاته .

«واما الفكرة فى ذات الله فلا سبيل اليها ، يعتبر المتفــكرون فى آياته ولا يتفكرون فى ماهية ذاته» .

«روى عن ابن عبــاس رضى الله عنهمــا ان رسول الله (ص) ابصر قوما ، فقال ، مالكم؟ فقالوا : نتفكر فى الخالق : قال ، تفكروا فى خلقه ، ولا تفكروا فى الخالق فانكم لا تقدرون قدره» (٧٤) .

---

(٧٢) شرح الرندى على الحكم ، جـ ١ ، ص ٢٠ .
(٧٣) شرح الرندى على الحكم ، جـ ٢ ص ٩٥ .
(٧٤) شرح الرندى على الحكم ، جـ ٢ ، ص ٩٥ .

واذا كان الماديون فى عصرنا هذا وفى كل عصر لا يعتدون الا بالحس ولا يؤمنون الا بالعالم المادى ، فان الصوفية على العكس من ذلك يرون ان العالم المادى ليس غاية فى ذاته وانما وراءه علة صانعة حكيمة مدبرة . صحيح ان الله تعالى قد أباح للانســان ان يشتغل بالبحث فى المكونات ، أو بالعلم المادى ، ولكنه امره فى نفس الوقت بعــدم الوقوف عنــد حــد المكونات ، وانما عليه أن يتجاوزها الى ما وراءها من الاسرار ، وقد ضمن ابن عطاء الله هــذا المعنى فى قوله «اباح لك ان تنظر ما فى المــكونات ، وما أذن لك ان تقف مع ذوات المكونات» «قل انظروا ماذا فى السماوات» (سورة يونس ، آية ١٠١) . فتح باب الافهام ، ولم يقل انظروا السموات لئلا يدلك على وجود الاجرام» (٧٥) .

ان «اشبه شىء بوجــود الكائنات اذا نظرت اليها بعين البصــيرة وجود الظلال ، والظل لا موجود باعتبار جميع مراتب الوجود ، ولا معدوم باعتبــار جميع مراتب العدم . واذا ثبتت ظلية الاثار «أى الكائنــات» لم تنسخ أحــدية المؤثر (الله) ، اذ الشىء انما يشفع بمثله ، ويضم الى شكله» (٧٦) .

كل ما فى الكون اذن ناطق بوحــدانية الله ، يقول ابن الفارض فى «التائية الكبرى» .

والسنة الاكوان ان كنت واعيــــا
شهود بتوحيــدى بحــال فصيحة

وكيف يكون للكائنات وجود حقيقى مع الله و «الكائنات لا يثبت لهــا رتبة الوجود المطلق ، لأن الوجود الحق هو لله وله لا حدية . انما للعوالم الوجود من حيث ما اثبت لها ، فاعلم ان من الوجود له من غيره فالعــدم وصفه فى نفسه» (٧٧) .

---

(٧٥) شرح الرندى على الحكم ، ج ١ ، ص ١٢٨ .
(٧٦) لطائف المنن ، القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ص ١١٤ — ١١٥ .
(٧٧) لطائف المنن ، ص ١١٤ .

ويمضى بعض الصوفية من أصحاب وحـدة الوجود (Pantheism) كابن عربى الى حد وصف الكون بأنه محض خيال اذا نظرنا اليه فى ذاته ، أما اذا نظرنا اليه من حيث هو مظهر لتجلى الحق باسـمائه الالهية ، فانه يصبح حقيقة ، والى هذا يشير بقوله :

انمـــا الكون خيـــــال
وهـــو حق فى الحقيقـــــة

والذى يفهم هـــــــذا
حـــاز أسرار الطريقـــة (٧٨)

ان هذه الآراء ليست بعيدة عن روح العلم الحديث كما قد يظن لاول وهلة ، فان صورة الكون بعـد نظرية اينشتين لم تعـد تختلف كثيرا عن صورته لدى الصـوفية ، ما دامت المجودات فيه ذرات ، والذرات تتحلل الى اشعاعات ، وما نحسه من ثبات الموجودات وصلابتها انما هو أمر راجع الى ادراكنا فقط وليس الى حقائقها .

ولولا العلة التى شاءت ان تأتلف خيوط احـداث هـذه الموجودات لتبرز الى العالم فى صورتها المدركة لنا ، لما كان لهذه الموجـودات وجود ولذلك يقول ابن عطاء الله : «لولا ظهوره (أى الله) فى المكونات ما وقع عليها وجود ابصار ، لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته» (٧٩) .

وما أعمق المعنى أيضا فى قوله :

«الكون كله ظلمة ، وانما اناره ظهور الحق فيه ، فمن ، رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله او بعده ، فقد أعوزه وجود الانوار ، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار» (٨٠) .

---

(٧٨) ابن عربى : نصـوص الحكم ، نشر وتحقيق وتعليق الدكتور أبو العلا عفيفى ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ١٥٩ .

(٧٩) شرح الرندى على الحكم ، ج ١ ، ص ١٢٧ .
(٨٠) شرح الرندى على الحكم ، ج ١ ، ص ٢١ .

وقد كشف ابن عباد الرندى عن الاغوار البعيدة لمعانى هذه الحكمة وما تتضمنه من الاشارات الى اختلاف مناهج العارفين فى نظرتهم الى الكون ومعرفتهم بخالقه ، اذ يقول :

«ثم اختلفت احوال الناس ههنا :

«فمنهم من لم يشـــاهد الا الاكوان ، وحجب بذلك عن رؤية المكون ، بهذا تائه فى الظلمات محجوب بسحب الآثار الكائنات (كلنى به يشير الى الحسيين من علماء عصرنا وفلاسفته) .

ومنهم من لم يحجب بالاكوان عن المكون ، ثم هم فى مشاهدتهم اياه فـــرق :

«فمنهم من شـــاهد المكون قبل الاكوان ، وهؤلاء هم الذين يستدلون بالمؤثر على الآثار (يشير هنا الى بعض الصوفية الذين يستدلون بالله على الكائنات ، ومن غريب الاتفاق أن يكون هـــذا هو نفس اتجاه الفيلســوف الفرنسى ديكارت فى سيره من اثبات وجود الله الى اثبات حقيقة العالم الخـــارجى) .

ا ومنهم من شــــاهده (اى المكون) بعد الاكوان ، وهؤلاء هم الذين يستدلون بالاثار على المؤثر (يشير هنا الى المتكلمين والفلاسفة ومن نحـا نحوهم فى اثبات وجود الله بواسطة الاســتدلال العقلى اذ يصعدون من الكائنات الى مكونها) .

«ومنهم من شاهده مع الاكوان . والمعية ههنا اما معية إتصـــال ، وهى شهوده فى الاكوان ، واما معية انفصال وهى شهوده عند الاكوان .

«وهـــذه الظروف (المذكورة فى حكمة ابن عطاء الله) ليست بزمانية ولا مكانية ، لان الزمان والمكان من جملة الاكوان» (٨١) .

---

(٨١) شرح الرندى على الحكم ، جـ ١ ، ص ٢١ .

ان نظرة بعض الصوفية الى الكون على هذا النحو تلتقى مع العلم . فهم يريدون القول بان الكون ، فى ابعاده الشاسعة التى لا يحيط بها عقل الانسان ، لا ينبغى ان يكون خاضعا لتصوراتنا نحن عن الزمان والمكان لانهما — على حد تعبير الرندى — من جملة الاكوان ، والاكوان لا توصف بالوجود الحقيقى . فالزمان والمكان اذن امران نسبيان لا وجود لهما فى الحقيقة الا من حيث ما يدرك الانسان بهما ما حوله من العالم المحسوس وموجوداته .

خلاصة القول ان الصوفية يعتبرون الوقوف مع موجودات هذا الكون مع الغيبة عن ادراك المكون معا لا يليق بالانسان ، لان كل ما فى هذا الكون ناطق بوجوده تعالى ، وليس ثمة حجاب بين الانسان والله ، لان الله متجل فى الموجودات على اختلافها و «كيف يحتجب الحق بشىء ، والذى يحتجب به هو فيه ظاهر وموجود حاضر؟!» (٨٢)

الحجاب اذن فينا نحن ، فى شهواتنا واهوائنا ، ولو تخلصنا منها لبدت الحقيقة واضحة كشمس النهار . وبهذا أيضا تتحقق حريتنا الجديرة بنا . وما أعمق المعنى فيما يقوله ابن عطاء الله :

«انت مع الاكوان مالم تشهد المكون ، فاذا شهدته كانت الاكوان معك» (٨٣) .

هناك اذن «فرق ما بين كونك مع الاكوان ، وكون الاكوان معك .

«فان كونك مع الاكوان يقتضى تقييدك بها ، وحاجتك اليها ، فانت بذلك عبد لها ، ثم هى خاذلتك ومسلمتك احوج ما تكون اليها ، وهذه حالة خسيسة يقتضيها عدم شهودك للمكون .

«وكون الاكوان معك يقتضى ملكك لها ، واستغناءك عنها (هذا هو المعنى الحقيقى للزهد فى الاسلام ، وهو ان تملك الشىء ولا تكون له عبدا فى نفس الوقت) ، فانت حينئذ حر عنها ، وهى محتاجة اليك وخادمة لك» (٨٤) .

---

(٨٢) شرح الرندى على الحكم ، ج ١ ، ص ٥٠ .
(٨٣) شرح الرندى على الحكم ، ج ٢ ، ص ٨٧ .
(٨٤) شرح الرندى على الحكم ، ج ٢ ، ص ٨٨ .

وقد يتبادر الى الذهن أن الصوفية يهونون من شأن الانسان ومكانته فى الكون ، كما يزهدونه فى الكون نفسه . وليس ثمة شىء ابعـد عن الحقيقة من هذا .

وكيف يزهد الصوفية الانسان فى الكون ، والكون مظهر تجليـات الله بصفاته المختلفة كالعلم والحكمة والقدرة والخلق والتدبير وما اليها؟

وكيف يهون الصوفية من شـأن الانسان وهم يعلمون انه خليفة الله على هذه الارض؟

لابد ان يكون وراء كلامهم عن الكون والانسـان غايات بعيدة ، فهم يريدون للانسان فى علاقته بالكون ان يكون خاضعا لقيم اخلاقية معينة ، فلا يتعـالى ولا يطغى ، ولا يغتر بعلمه ولا يعجب بامكانيـاته ، انهم كذلك يريدون له أن يتحـرر من عبـودية الركون الى العـالم المحسوس وملذاته لينطلق الى فضاء المعرفة بخالقه .

انهم كاطباء النفوس ، يعلمون الكثير عن نواحى الضعف الخلقى فى الانسـان ، فيريدون علاجها وتلافى اسبابها ، لمـا يترتب عليها من شرور مدمرة تلحق بالانسان ذاته وبمجتمعه ، الم يقل الله تعالى :

«وخلق الانسان ضعيفا» (سورة النساء ، آية ٢٨) .

«وكان الانسان عجولا» (سورة الاسراء ، آية ١١) .

«وكان الانسان أكثر شىء جدلا» (سورة الكهف ، آية ٥٤) .

«كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى» (سورة العلق ، آية ٦ — ٧)

وهذه الآيات انما تصور الانسان حين ينحرف فى سـيره عن الوجهة التى يريدها الله له .

اما الانسان من حيث ما يحقق انسانيته بالعلم وقيم الاخلاق فلا حدود لارتقائه وتقدمه .

انه صورة مصغرة للكون كله جامعة لاسراره (٥/٨) ، اليس هو الكائن الوحيد القادر على تصفح موجودات هذا العالم ومعرفة اسرارها بما اودعه الله فيه من الاستعداد لذلك؟

ان الكون المادى وان وسع الانسان من حيث جسمه المادى الا انه لا يسعه من حيث حقيقته الروحانية ، يقول ابن عطاء الله :

«انما وسعك الكون من حيث جثمانيتك ، ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك» (٦/٨) .

«جعلك فى العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته ، وانك جوهرة تنطوى عليك اصداف مكوناته» (٧/٨)

وليعذرنا القارىء اذا كنا قد أطلنا الحديث بعض الشىء عن نظرة صوفية الاسلام الى الكون والانسان ، فلقد كان هدفنا أن نظهره على ما فى الفكر الاسلامى من نظرة عميقة واعية الى الكون والانسان تستند الى قيم خلقية رفيعة ، وتنطوى على نزعة مثالية تهدف الى النفاذ الى الحقيقة العليا ، وهى فى نفس الوقت من الزم ما يكون لمجتمعاتنا فى هذه المرحلة من تطورها لتحد من غلواء المذاهب المادية ، وشطط المذاهب العبثية التى افتتن بها البعض فى عصرنا .

ومن الخطأ فى رأينا ان نعزل العلم عن التصوف أو القيم الاخلاقية بدعوى الموضوعية ، فما الذى يمنع من أن يكون العالم بالكون وموجوداته

(٥/٨) لذلك يسمى بعض القدماء الانسان بالعالم الاصغر . يقول التهانوى : «وفى أسرار الفاتحة قد يقسم العالم الى الكبير والصغير ، واختلف فى تفسيرهما ، فقال بعضهم : العالم الكبير هو ما فوق السماوات ، والصغير هو ما تحتها ، وقيل : الكبير ملكوت السماوات والارض وما بينهما ، والعالم الصغير هو الانسان» ، كشاف أصطلاحات الفنون ، مادة : «العالم» .

(٦/٨) شرح الرندى على الحكم ، جـ ٢ ، ص ٨٦ .

(٧/٨) شرح الرندى على الحكم ، جـ ٢ ، ص ٨٧ .

مؤمنا بالله ، ومتخلقا بكل خلق رفيع؟ الا يكون هذا ضمانا لعدم انحراف العلم في عصرنا عن مساره الطبيعي ، وهو نفع الانسان ، الى استخـدامه في ، رور لا يعلم الا الله وحده ماذا سيكون مداها في المستقبل؟

ان الامتزاج الحقيقي بين الصـوفي ورجل العلم هو — في رأى الفيلسوف المعاصر برتراند رسل (١) وليس في رأينا وحدنا — قمة السمو ، وهو شيء يمكن تحققه في عالم الفكر .

وتأمل فيما يقوله رسل أيضا : «اذا كانت لدينا الرؤية الصـوفية للعالم ، وما يتجلى فيه من المرائى ، على أنه يكتسي بنور سماوى ، فانه يمكن القول بوجود خير اسمى اعلى من ذلك الذى يتطلبه الفعل ، وان ذلك الخير يغمر العالم كله . وهذا الحب الكلى لكل ما يوجد ، ذو أهمية قصـوى من حيث السلوك والسعادة في الحياة ، ويعطى للعاطفة الصوفية قيمة لا يمكن تقديرهـا؟ (٨٨) .

• • •

(٨٨) انظر بحث برتراند رسل (Mysticism and logic)
وقد نشرنا ملخصة مع دراسـة تحليلية له في بحث لنـا نشر بمجلة «الفكر المعاصر» القاهرة : العدد ٣٤ ، ديسمبر ١٩٦٧ ، وجـدير بالذكر ان العدد كله عن رسل وفلسفته .

ثبت باهم المراجع

١ ــ القرآن الكريم .

٢ ــ ابن حــزم : الفصل فى الملل والاهــواء والنحل ، القــاهره ١٣١٧ هـ .

٣ ــ ابن رشد : فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال القاهرة ١٣٢٨ هـ .

٤ ــ ابن رشد : الكشف عن منــاهج الادلة فى بيــان عقائد الملة ، القاهرة ١٣٢٨ هـ .

٥ ــ ابن عباد الرندى : شرح الحكم العطائية المعروف بغيث المواهب العلية ، القاهرة ١٢٨٧ هـ .

٦ ــ ابن عربى : فصــوص الحــكم ، نشر وتحقق وتعليق الاستاذ الدكتور أبو العلا عفيفى ، القاهرة ١٩٤٦ م .

٧ ــ ابن عطاء الله السـكندرى . التنــوير فى اسقاط التــدبير ، القاهرة ١٣٤٥ هـ .

٨ ــ ابن عطاء الله الســكندرى : الحــكم ، مع شرح الرنــدى ، القاهرة ١٢٨٧ هـ .

٩ ــ ابن عطاء الله السكندرى : لطائف المنن ، القاهرة ١٣٢٢ هـ .

١٠ ــ ابو الوفا التفتازانى : ابن عطاء الله السكندرى ، وتصوفه ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٩

١١ ــ ابو الوفا التفتازانى : علم الكلام وبعض مشكلاته ، القاهرة ١٩٦٦ .

١٢ ــ التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ، كلكتا ١٨٦٢ هـ .

١٣ ــ الجرجانى : التعريفات ، القاهرة ١٢٨٣ هـ .

١٤ ــ الحافظ المنذرى : مختصر صحيح مسلم ، بتحقيق محمد ناصر الدين الألبانى ، سلسلة احياء التراث الاسلامى التى تصدرها وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية بدولة الكويت الكويت ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٩ م .

١٥ ــ دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام ، ترجمة الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريدة ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٤ م .

١٦ ــ الشهرستانى : الملل والنحل ، بهامش الفصل لابن حزم ، القاهرة ١٣١٧ هـ .

١٧ ــ الشيبانى : تيسير الوصول الى علم الاصول ، القاهرة ١٣٤٦ هـ .

١٨ ــ صاعد الاندلسى : طبقات الامم ، نشر المكتبة الحيدرية بالنجف الاشرف ، ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م .

١٩ ــ الصنعانى (بدر الدين) : ترجيح اساليب القرآن على اساليب اليونان القاهرة ١٩٣١ م .

٢٠ ــ الطوسى : اللمع ، القاهرة ١٩٦٠ م .

٢١ ــ الغزالى : احياء علوم الدين ، القاهرة ١٣٣٤ هـ .

٢٢ ــ الغزالى : المستصفى ، القاهرة ١٣٢٢ هـ .

٢٣ ــ فخر الدين الرازى : مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير ، القاهرة ١٣٢٤ هـ .

٢٤ ــ الكندى : الرسائل ، نشر وتحقيق وتعليق الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريدة ، القاهرة ١٩٥٠ م .

٢٥ ـ الله يتجلى فى عصر العلم ، مجموعة مقالات لبعض العلماء المعاصرين ، نشرها جون كلوفر مونسما ، نشر دار احياء الكتب العربية بالقاهرة .

٢٦ ـ شرح العقيدة الطحاوية فى العقيدة السلفية لشارح مجهول (يرجح انه الاذرعى الدمشقى المتوفى سنة ٧٤٦ هـ) المطبعة السلفية بمكة المكرمة ، ١٣٤٩ هـ .

بعض المراجع الاجنبية الوارد ذكرها فى البحث :

(1) Descartes (R) : Discours de la méthode, ed joseph Gibert.
(2) Descartes (R) : Les Principes de la Philosophie ed. joseph Gibert.
(3) Lalande (A) : Vocalulaire technique et critique de la philosophie, Paris 1956.
(4) Malbranche : Entretiens métaphysiques, ed. Fontana.
(5) Russell (B) : mysticism and logic. London 1914. in Selected Papers, The modern Library, 137. New York, 1927.
(6) Sartre (J.—P.) : L'être et le néant 1966 Edition gallimard, 1943, Offset—Aubin à Poitiers (Vienne), 1965.